رواية

غواية الإسكندر



غوايـة الإسكندر

رواية

محمد جبريل

إلى سمية الشوابكة ..

تلك اللحظات التى صادَفَت فيها مدينتى ، الإسكندرية

" ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكراً "

قرآن كريم

إن حكاية الإسكندر ذائعة ، حتى إن كل إنسان بلغ سن الرشد يعرف شيئا عن تقلبات حظه

تشوسر

أى جنة هذه ؟

الإسكندر عند وصوله إلى الدلتا

أيتها المدينة التى ولدت من البحر ، ستغزو أسماك الظلام ــ ذات يوم ــ قصورك المشيدة على هيئة الحيوان

مالــرو

الفصل الأول

تبينت وقفتى فى التقاء شوارع إسماعيل صبرى ورأس التين وفرنسا .

أفق البحر يبين فى تقاطع إسماعيل صبرى والكورنيش . السماء صافية الزرقة ، والقوارب متناثرة فى المينا الشرقية ، وأسراب الطير محلقة بالقرب من الشاطئ .

هل أمضى فى فرنسا إلى ميدان المنشية ؟ هل أسير فى رأس التين إلى السراى ؟

مضيت فى امتداد إسماعيل صبرى حتى نهايته . الزاوية على شارع صفر باشا ، وعلى ناصية الطريق المرصوف بالبازلت ، والمحاط بسور الجمرك ، إلى المخازن ، ومحال بيع أدوات البحر : معدات الصيد وطعم السمك وقطع غيار الفلايك والبلانسات والفلين والغزل والقار والحبال والكنار والبكر والمخاطيف .

من الناحية المقابلة ، يمضى الشارع إلى شاطئ الأنفوشى ، يطل عليه باب رقم واحد باختلاط الزحام

والنداءات والصيحات والتفتيش والشخط والنطر والتصاريح وعساكر الميناء والبحارة والعتالين والسيارات والأرصفة وصفير البواخر وأصوات المحركات والروافع والحاويات والأوناش والمستودعات ولوطات الخشب ورصات الأجولة وأكشاك التخليص .

سيدى العدوى هو الولى الذى يعيد الأولاد التائهين ، والأشياء الضائعة ، إلى أصحابها . هل أستعين به ـــ ولو بينى وبين نفسى ، ولو فى صوت هامس ، وأنا ألمس بيدى شباك المقام بأصابع ملهوفة ـــ ليدلنى على قبر الإسكندر ؟

منذ ألقى السؤال : أين قبر الإسكندر ، والمحاولات لا تكف عن الدراسة والبحث والتنقيب

وقفت على رأس الموقع . يتوسط شاطئ المينا الشرقية . قبالة مبنى المحكمة بالمنشية تماماً . أحدس الصوت ، أتخيله . صوت مجوف له رنين وصدى ، يشى بأنه يعلو ما يخفيه . أكاد أسمع دقات قلبى ومعاول العمال تشق باطن الأرض ، فى طريقها إلى اكتشاف الوثيقة الكنز .

هل يشهد العالم بها مستقبلاً جديداً ؟.. وهل تطمئن الإسكندرية من الخطر المتوقع ؟. لكننى لم أعثر فى الموقع

الجديد على أية بقايا أثرية . وصلت المعاول إلى المياه دون أن تشى الأرض بأثر من أى نوع .

أرقب تمثال الأشرعة وعروس البحر أول الطريق إلى السلسلة .

لم تعد السلسلة ــ كما كانت قبل ١٩٦٧ ــ موضعاً للتمشى والتأمل والمذاكرة ولقاء المحبين . أصبحت ــ عقب الحرب ــ موضعاً عسكرياً ممنوع الاقتراب منه ، أو تصويره . الخرائط لا تسقط السلسلة باعتبارها موقعاً محتملاً لقبر الإسكندر . هى لسان يمتد فى قلب المينا الشرقية . تحت المياه آثار للبطالمة ، وربما ــ زيادة فى التمويه ــ جعلوا قبر الإسكندر تحت لسان السلسلة .

ألفت التردد على السلسلة وقلعة قايتباى وكوم الدكة وحجر النواتية وعمود السوارى والكنيسة المرقسية .

كنت أقرأ تاريخ الأمكنة ، وأتأمل ، وأحلل ، وأناقش ، وأكتب مذكرات ، وأرسم خرائط . أحاول التوصل إلى الاستنتاج الصحيح . أمنى النفس بأن أعثر على أى شئ قديم : بقايا قصور ومعابد وهياكل ، فخاريات ، أماكن تقديم القرابين وتماثيل الآلهة والتماثيل الصغيرة كأوشابتى الفراعنة

، أوراق بردى ، أطعمة ومشروبات محفوظة . طرف خيط يدلنى على بداية البداية . الميلاد والنشأة ، فالحياة التى أثمرت وثيقة فيها الخلاص للبشرية لو أنى أفلحت فى العثور عليها . أتصور الوصية فى صندوق من الذهب ، أو من الفضة ، أو الأبنوس ، أو الخشب . بداخله علبة من النوعية نفسها ، بداخلها أوراق تتضمن وصية الإسكندر ، الباعث لمحاولات البحث عن قبره .

يقلقنى التآكل فى الشواطئ ، ضيق البلاجات فى المندرة والعصافرة وميامى وستانلى ، يجعلها الأقرب لخطر الانهيار . استعادة الشواطئ بحقنها برمال الصحراء ، فى جليم ، والشاطبى ، واستانلى ، والعصافرة ، وميامى ، والمندرة ، وأبو قير . الأمواج تضرب الكورنيش ــ منذ أنشئ فى ١٩٣٤ ــ فتسحب الرمال من أسفله . مكعبات الأسمنت أخفقت فى إبعاد خط الأمواج ..

* * *

هل يغرق البحر مدينتى ؟..

لم يكن الغرق الذى يتهدد الإسكندرية هو أول ما واجهته فى تاريخها . حدثت زلازل ، وتشققات أرضية ،

وهبوط تحت سطح البحر ، وغمر مد البحر مساحات بأكملها من المدينة . الزلزال ــ فى القرن الثانى قبل الميلاد ــ أخفى الحى الإمبراطورى تماماً . هو الآن تحت المينا الشرقية . العلماء يتحدثون عن ارتفاع البحر ــ فى الأعوام القادمة ــ بحيث تبتلع مياهه أرض الإسكندرية والدلتا . يدّلون على تحذيراتهم بالأرقام والإحصاءات والتحليلات ، لكننى أرفض مجرد التصور أن يقتل البحر مدينتى ، بعد أن طال عناقه لها بصدر يمتد بين سراى رأس التين وقلعة قايتباى ، وذراعاه المينا الشرقية والمينا الغربية . عناق متواصل لآلاف السنين ، من المستحيل تصور أنه ينتهى باغتيال العاشق لمعشوقته !

كنت قد ركزت أبحاثى على البرزخ الفاصل بين الميناءين الشرقى والغربى . هى الهيبتاستاديوم القديم . امتدت ــ فيما بعد ــ ناحية القبارى والمكس والمحمودية وكوم الدكة ومحرم بك ، لكنها هى البداية ..

تخطيط الإسكندرية ــ كما وصفه دينوكراطيس ــ هو شارعان رئيسان ، متقاطعان بزاوية قائمة ، وتتقاطع مع الشارعين شوارع أخرى فرعية ، موازية لهما . نمط الزوايا القائمة المستقيمة ..

أكتم فى داخلى ما توصلت إليه قراءاتى . جوامع أبو العباس ونصر الدين وياقوت العرش والبوصيرى بنيت على هضبة هى بقايا الهيبتاستاديوم القديم للإسكندرية . اتصلت جزيرة فاروس ومدينة راكوتيس ، ونشأت الإسكندرية . شملت كل مساحة الأرض بين البحر والبحيرة . ظلت راقودة [راكونداه ، راكوتيس] حياً وطنياً للمصريين الذين كانوا يقيمون فى القرية القديمة قبل مجيء الإسكندر . تزايدت البنايات التى تضيف إلى ملامح المدينة واتساعها : مقبرة الإسكندر ، المتحف ، المسرح ، المكتبة ، القصور الملكية ، الاستاد الرياضى ، الميناءان الغربى والشرقى ، ملعب الجمينازيوم ، معبد ربات الفنون ، مدينة الموتى ، معابد الثالوث المقدس : سيرابيس وإيزيس وحربوقراط ، وغيرها من المعابد والمقابر والحدائق والمرافئ والأسوار العالية الجميلة . امتدت مساحة المدينة فى القرن الثانى الميلادى ، إلى المكس والورديان من جهة الغرب ، وإلى حى الرمل فى جهة الشرق . تجاوزت الشاطبى وكامب شيزار والإبراهيمية ومصطفى كامل ، حتى أبو قير . صارت أول ، أو ثانى ، مدينة فى العالم المأهول آنذاك ..

أحرص أن يكون البحث داخل أسوار المدينة البطلمية . المدينة التى وضع تخطيطها محمود الفلكى فى منتصف القرن التاسع عشر ، مدينة عربية ، فلا شأن للإسكندر بها ..

هل اختار الإسكندر قبره فى موضع البداية ؟

قال لمهندسه دينوكراتيس : أريد أن أبنى مدينة هنا . قال ــ فيما بعد ــ : أريد أن أبنى قبرى هنا .

صعدت الرافعة بتمثال إيزيس ، حامية الفلاحين ، من مياه الميناء الشرقية . تاريخه القرن الثالث قبل الميلاد ..

قدمت إلى جاك شارتييه خريطة تحددت عليها المواقع الأثرية الغارقة فى الموضع نفسه : أعمدة وتماثيل وأجزاء من قصور ومعابد ومسارح . أشرف على أعمال مسح طوبوغرافى ، وحفائر أثرية ، فى مساحة المدينة . تناثرت أعمال المسح . شملت حتى المناطق التى ربما لم يصلها العمران . كانت ــ فى عهد الإسكندر ــ مجرد صحارى بلا آفاق ..

قال لى الرجل بعربية متكسرة :

ــ معداتنا متقدمة .. تستطيع تصوير كل ما فى أعماق المنطقة من آثار ..

قاطعته :

ــ قبر الإسكندر ..

ــ من ؟..

ــ الإسكندر .. الإسكندر المقدونى .. قبره فى هذه المنطقة ..

ــ ما نعلمه أن المنطقة بها آثار .. بعد تصويرها سنعرف أى آثار هى ..

غالبت تلهفى :

ــ هل أصحبكم ؟..

ــ هذه مهمة علمية ..

قلت فى لهجة محرضة :

ــ معى خرائط قد تفيدكم ..

ــ دعنا نصور أولاً .. ثم نلجأ إلى خريطتك ..

أهملت لهجته المستفزة . فى بالى أن أهمل كل ما يعيق . غضضت النظر حتى عن جلسته المسترخية ، اللامبالية ، فى طرف الموقع ..

لمحت تلويحة يد نجلاء . أدركت أنها استجابت لدعوتى بزيارة الموقع . كان من الصعب أن تنزل إلى حيث أقف وسط العمال ، فصعدت إليها ..

قلت ، وأنا أمسح المكان بإشارة متباطئة :

ـــ لو أنى عثرت على ما أبحث عنه .. فسأصل إلى اكتشافات مذهلة ..

تأملت البنايات التى شكلت نصف دائرة من القلعة إلى السلسلة والكازينوهات والنخيل وارتفاع مئذنة أبو العباس . واجهات البيوت على امتداد الطريق . تساقط طلاؤها من الرطوبة والملح ، وتقشرت الألوان فى ضلف النوافذ ، وعلا الصدأ قوائم الحديد فى الطوابق التحتية ..

إذا وقفت على الكورنيش ، فإن البنايات تطالعك فى امتداد الطريق بتعرجاته وانحناءاته . ارتفاعات متباينة وشرفات ونوافذ وأفيشات وإعلانات نيون . هو ما يطالعك إذا وقفت فى موضع مماثل ، فى أية مدينة أخرى تطل على البحر . بنايات الإسكندرية تختلف . ليس بالجمال أو القبح ، لكنها تبدو مختلفة . هذه هى بنايات الإسكندرية . تستعيدها فى المدن الغربية ، وتتعرف عليها إذا اخترت موضعاً فى

مواجهتها . أنت تتعرف إلى سحن أحبائك ، دون أن يشغلك تأمل الملامح ، فهى حاضرة فى عينيك ، وفى داخلك . مجرد التكوين العام ، أو الصورة الكلية ..

بدا كأنها تشاهد المكان للمرة الأولى ، أو أنها استغرقت فيه تماماً ..

عرضت أمامها أيقونة من العصر البطلمى :

ــ ما رأيك ؟

ــ فى ماذا ؟

ــ هذه الأيقونة .. عمرها أكثر من ألفى سنة ..

هزت كتفيها :

ــ يوجد أفضل منها فى محال السيراميك ..

ــ ميزتها فى القيمة التاريخية ..

أطلقت أف متضايقة :

ــ التاريخ .. التاريخ .. ماذا يفيد البحث عن الماضى ؟.. عن الموتى ؟..

وأنا أضغط على الكلمات :

ــ ما يهمنى هو الطلسم الذى يحمى الإسكندرية من الغرق !

تحت هذه الحصيرة التى تعلو وجه المياه ، توجد مدينة كاملة ، ربما هى المدينة التى تضم قبر الإسكندر .

أرفض تصور أن يكون اللصوص قد سبقوا إلى اكتشاف قبر الإسكندر . أن يكونوا قد سرقوا الطلسم ، ضمن ما جردوه من كنوز الذهب والفضة .

الفصل الثانى

الإسكندرية ..

المدينة ـــ فى وصف المقريزى ـــ من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً . بنيت غير مرة ، فأول ما بنيت بعد كون الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر بن نوح . وكان يقال لها حينذاك مدينة راكوتيس . ثم بنيت بعد ذلك مرتين . فلما كان فى أيام اليونانيين ، جددها الإسكندر بن فيليب المقدونى الذى قهر دارا ملك ممالك الفرس بعد تخريب بختنصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية ، فعرفت به.

راقودة هى التسمية الأولى ..

من الذى غير التسمية ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟..

نسب إلى صياد قوله : " نحن مؤسسو هذه المدينة " . بمعنى أن الصيادين هم أصل الإسكندرية ..

كان الناس يشتغلون ـــ فى البداية ـــ بصيد الأسماك . فى العصور الوسطى كانت السفن الأجنبية ـــ وحدها ـــ ترسو فى الميناء الشرقى ، الميناء الرئيسى للإسكندرية

حينذاك ، بينما سفن المسلمين ترسو فى الميناء الغربى . أبطل الانتقاع ــ فيما بعد ــ بالميناء الأول . منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، صار الميناء الغربى مرفأ للبواخر والبضائع على السواء . وحتى حفر قناة المحمودية فى ١٨٢٠ كانت الإسكندرية ــ المدينة ــ ما بين المينا الشرقية والمينا الغربية .

بعدها ، ولدت المدينة من جديد ..

البعثة الفرنسية هى التى اكتشفت راكوتيس فى تسمية اليونان ، راكونداه فى تسمية الفراعنة ، وهى راقودة ، القرية التى كانت قبل مجىء الإسكندر . كانت جزيرة فاروس المقابلة ، منفصلة تماماً عن أرض اليابسة . قال هوميروس عن جزيرة فاروس التى وصلت بقرية راكوتيس : " هناك فى وسط البحار التى تعوم فيها مصر ، قامت جزيرة فاروس ، التى يعرفها الجميع " . قيل إن هذه الكلمات هى التى أغرت الإسكندر بقيادة جيوشه إلى القرية المصرية . بداية راكونداه فى الزمن الفرعونى . كانت راقودة ، راكوتيس ، مأهولة بالحياة والبشر . صيادين ورعاة ، وأسر حاميات مصرية مرابطة فى القرية الواقعة فى قلب البحر . الآثار

الغارقة فى الميناء الشرقية تعود إلى الملك الفرعون سيتى ، وإلى عصر الدولة الوسطى الفرعونية ، أى حوالى ألف سنة قبل مجىء الإسكندر إلى مصر . وفى كتابات مؤرخى الحملة الفرنسية أن الميناء الذى غمرته المياه ــ فيما بعد ــ تحت سطح البحر ــ هو ميناء حربى أقامه رمسيس الأكبر ، قاعدة يرد منها هجمات الغزاة . ثم شيد الفرعون بسماتيك قلعة حربية فى الموضع نفسه ــ للغرض نفسه ..

سبق عمران الإسكندرية فى عصور الفراعنة ، ما أضافه البطالمة ، منذ طلب الإسكندر أن تقام المدينة باسمه . قدم الإسكندر فبنى فوق راكوتيس ، وأضاف إلى مساحتها . تحولت قرية الصيادين الصغيرة إلى مدينة هى الإسكندرية . لم ينشئ الإسكندر ما أطلق عليه اسمه ، لكنه أمر بإنشاء جسر الهيبتاستاديوم ، يصل بين بقايا مدينة راكوتيس وجزيرة فاروس . وصلها المهندسون ، فنشأت مدينة ، اتسعت بتوالى العصور ، هى الإسكندرية الحالية ..

اختيار موقع الإسكندرية فرضه وجود جزيرة فاروس الصغيرة ، البعيدة عن الشاطئ بحوالى كيلو متر . شريط صخرى ، إذا اتصل بالجزء الرئيسى من أرض المدينة

بواسطة جسر . تحمى المدينة الميناءين الشرقى والغربى على جانبى الجسر . مدينة جديدة ، ذات موقع حصين يسهل الدفاع عنه ، لها مدخلان ضيقان يربطانها من الشرق والغرب باليابسة . مناخها معتدل ، لهبوب الرياح الشمالية الغربية بصورة دائمة .

تحدث هوميروس فى الأوديسا ، عن الميناء الواقع على الطرف الجنوبى الغربى لجزيرة فاروس . حين فتح الإسكندر مصر ، لم يكن على الأرض سوى قرية راكوتيس ، على الطرف الجنوبى للتلال الضيقة ، المواجهة لبحيرة مريوط . جسر الهيبتاستديوم ربط راكوتيس بجزيرة فاروس . اختصر المسافة بينهما من نقطة عند الطرف الغربى للمدينة ، إلى أقصى نقطة جنوبى الجزيرة .

أمر الإسكندر ببناء مدينته على ما هو قائم بالفعل . بشر وأرض ومظاهر حياة . لم يشر إلى خلاء ، ولا إلى صحراء ، أو جزء من البحر يأمر بردمه . القرية ــ راقودة ــ يعيش فيها صيادون ورعاة ، والجزيرة فاروس ألهمت هوميروس أبيات قصيدته ، تكاد تكون ملاصقة للبر الأصلى

، وتكون معه ميناء ذا مدخلين ، وتمتد بالطول فى موازاة الشاطئ . بدت ميناء طبيعياً ، متوقعاً ، للمدينة المتصلة .

هكذا نشأت الإسكندرية .

موقعها الاستراتيجى يتجه بها ــ من الداخل ــ نحو النيل ، ومن الخارج نحو البحر المتوسط . الميناءان الشرقى والغربى يصلان بين أقصى طرفى المدينة ، تحميهما جزيرة فاروس ــ بموقعها الفريد من رياح الشمال . الميناء الشرقى هو الميناء البحرى الملكى . يحميه حاجز يمتد فى البحر من طرف رأس لوخياس . أقيم عليه القصر الملكى ، ومعسكرات الجنود المقدونيين . على الخليج الصغير بين الميناء الشرقى ورأس لوخياس فى الغرب ، أنشئ الميناء الداخلى للعائلة الملكية .

طريق كانوب وطريق الضريح أهم شوارع المدينة ، تفرعت منهما شوارع جانبية ، شكلت ــ فى امتدادها ــ مساحة الأعوام الأولى من الإسكندرية . امتدت ــ بعد ذلك ــ ناحية الشرق . نمت ــ خارج أسوار المدينة ــ ضاحية إليوسيس ، وضاحية أخرى بالاسم نفسه ، على شاطئ البحر . زودت المدينة بقنوات تحت الأرض ، تصل ــ من خلالها

ـــ مياه النيل إلى البيوت . أمر الإسكندر كل من يقيم فى المناطق القريبة من الإسكندرية ، فى حدود ثلاثين ميلاً ، أن يتحركوا ناحية المدينة ، ويعمروها ..

أصبحت الإسكندرية عاصمة لمصر طيلة العصر البطلمى ، وظلت هى العاصمة بعد هزيمة أسطول كليوباترة فى معركة أوكتيوم ، وانتحار آخر سلالة البطالمة ، وتحول مصر إلى ولاية رومانية فى النصف الأخير من القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وظلت الإسكندرية هى العاصمة سبعة قرون حتى فتح عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام ، فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ..

القبر ـــ فى روايات كثيرة ـــ عند ملتقى الشارعين الرئيسين فى وسط المدينة . أعرف أن تخطيط الإسكندرية المماثل لرقعة الشطرنج ، لم يتغير بعد الفتح العربى . ظلت الشوارع المستقيمة المتعامدة . يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب . طريق فسيحة هى " المحجة " العظمى . تتعامد مع طريق فسيحة أخرى من الشمال إلى الجنوب ، بين القصرين ..

امتدت الإسكندرية ، واستطالت ، وتغيّرت ، وتبدّلت . خططت فيها الشوارع ، وشيدت المبانى ، وتعدّدت الصناعات والحرف ، وتزايد الناس ، لكن راكوتيس ظلت موطن الصيادين . غادرها معظمهم ـــ فى الأزمنة التالية ـــ إلى أبو قير والمكس ومناطق أخرى فى امتداد الساحل ، ظلت راقودة ـــ قرية الصيادين القديمة ـــ موطن الصيادين إلى زماننا الحالى . الطريق الرئيس ، الكانوبى ، الممتد من الشرق إلى الغرب ، ينتهى غرباً فى البحر ، ويمتد شرقاً حتى كانوب [أبو قير] يمتد ـــ طبيعياً ـــ بطول لسان الحجر الجيرى . كانت الطريق موجودة قبل قدوم الإسكندر . فى حوزتى وثائق لعلماء وأساتذة تاريخ ، مصريين وأجانب ، تؤكد وجود مدينة سابقة على مدينة الإسكندرية فى المنطقة نفسها . عثروا على جانب من حائط بميناء من الخشب والحجارة ، تاريخه القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل عشرات الأعوام من إنشاء مدينة الإسكندر ..

* * *

ولد الإسكندر المقدونى فى ٣٥٦ ق . م . أبوه فيليب الثانى ملك مقدونيا . أمه أوليمبياس ، ومؤدبه أرسطو ..

ظل ما قرأته ـــ الرواية إغريقية ـــ فى ذهنى لفترة طويلة . أستعيده ، ويناوشنى . فى ليلة زفاف أوليمبياس ، رأت فى المنام أن صاعقة نزلت على جسدها ، فتحول إلى شعلة من النار . أفاقت المرأة من حلمها . فسّرته بأن الصاعقة هى مظهر عناية زيوس آمون بأمر الخلف الذى تنجبه .

زيوس آمون هو إله الإغريق ، يمت بصلة حقيقية إلى آمون إله المصريين . فى اليوم التالى للزفاف ، رأى فيليب ـــ فيما يرى النائم ـــ أنه طبع على جسد زوجته خاتماً عليه نقش أسد . قال عراف القصر إن الإنسان لا يختم شيئاً فارغاً ، فلابد أن تكون أوليمبياس قد حملت ، ووليدها سيكون فى شجاعة الأسد . ربطت أوليمبياس بين نزول الصاعقة والحمل . فسرت الأمر ـــ كما صارحت زوجها ـــ بأن الجنين الذى فى بطنها ليس ابنه ، لكنه ابن الإله آمون الذى أنزل الصاعقة ـــ فى المنام ـــ على جسدها . ما بلغ الإغريق من أساطير المصريين ، أن الإله آمون يتردد ـــ بين وقت وآخر ـــ على مخادع الملكات ، فيحملن منه ملوك المستقبل . ضاجع آمون الملكة فى صورة حية ، نفخ من روحه فى أذن

المرأة ، فحملت . كانت أوليمبياس مولعة بحية معينة ، أليفة ، رآها فيليب وهى تداعب الحية ـــ ليلة ـــ فثار الشك فى داخله ، ثم تيقن أن الحية لم تكن إلا الإله آمون نفسه .

كان فيليب المقدونى خارج قصره يتأمل تناثر الطيور وهى تلتقط طعامها . هبط طائر ، وألقى بيضة فى حجر الملك ، ثم تدحرجت البيضة من حجر الملك المقدونى ، فسقطت على الأرض ، وتهشمت . خرج منها ثعبان صغير . التف حول البيضة عدة مرات . وحين أراد أن يدخل البيضة من حيث خرج ، اصطدم رأسه ، ومات ..

قال المنجم أنتيفونتا للملك فيليب :

ـــ أيها الملك . سوف يكون لك ابن يغيّر وجه العالم بأسره ، ويخضع كل فرد لسطوته ، ولن يستطيع أحد إخضاعه . على أنه سوف يموت فى أثناء عودته إلى بلده بعد أن يكون قد عاش فترة قصيرة من العمر .. فالثعبان حيوان ملكى ، كما أن البيضة التى خرج منها الثعبان تمثّل العالم . وعندما أراد الثعبان ـــ بعد أن أحاط بالعالم ـــ أن يدخل المكان الذى انطلق منه . فشل فى ذلك ، ومات ..

رواية ثانية ، لعل المصريين مصدرها : كان ملك مصر نيكتانيبوس يجيد أفعال السحر ، وإخضاع الطبيعة للقدرات البشرية . وحين أدرك أن مملكة مصر آذنت بالغروب ، حمل الكثير من الذهب والفضة ، وحلق شعر رأسه واختفى .

مضى ــ فى غيبة عن الأنظار ــ حتى وصل مدينة " بلاّ " المقدونية ، ومارس التنجيم كنبى مصرى يمتلك من وسائل السحر والتنجيم ما لا يمتلكه بقية البشر .

حين افتقد المصريون ملكهم الغائب ، تناهى قول الإله من العالم السفلى فى " سينوبوس " : ملككم هذا الذى هرب ، سوف يعود مرة أخرى إلى مصر ، لا بوصفه رجلاً كهلاً ، بل شاباً ، وسوف يخضع أعداءكم الفرس . تعددت تخميناته ونبوءاته وتوقعاته ، واستشارته الملكة أوليمبياس فى أمورها . لاحظت الملكة تحديق الشهوة فى عينيه . قالت :

ــ لماذا تنظر لى هكذا ؟

قال نيكتانيبوس :

ــ تذكرت ــ مولاتى ــ نبوءة تلقيتها ــ ذات يوم ــ من الآلهة ، تقول إننى سأتشاور مع ملكة جليلة ، وأعنى

بأمورها . وها هى ذى النبوءة قد تحققت ، فهل تتفضل مليكتى فى إبلاغى بما تريد السؤال عنه ؟

أخرج نيكتانيبوس يده من تحت ردائه ، أظهر من أفعال السحر ما بدا كأنه حقيقة . استزادت الملكة من علم الرجل ، قالت :

ـــ هناك إشاعة تقول إن فيليب سيهملنى عقب عودته من البحر ، ويتخذ زوجة أخرى .

لجأ نيكتانيبوس إلى وسائل التنبؤ ، وقال :

ـــ العلامات تقول إنك ستعاشرين إلهاً أرضياً ، وتحملين منه ، وبعد الحمل ستلدين ، وترعين الطفل ، وسينتقم هذا الطفل لكل ما يصيبك به فيليب من إساءات .

قالت أوليمبياس :

ـــ من ذلك الإله ؟

قال :

ـــ إله المصريين آمون .

أضاف :

ـــ الآن ، أعدى نفسك لرؤيا ترين فيها نفسك والإله المناسب لك .

قالت :

ــ إذا رأيت هذه الرؤيا بالفعل ، فسأحبك لا بوصفك رجلاً ، بل إلها !.

قام نيكتانيبوس بأفعال سحر ، وصحت أوليمبياس من نومها ــ ذات صباح ــ واستدعت نيكتانيبوس ، وقالت له :

ــ لقد رأيت الرؤيا ، ورأيت الإله الذى حدثتنى عنه ، وقال لى : لقد حملت منى بطفل ذكر سيكون المنتقم لك . والآن أريد أن أضاجع الإله . عليك أن تخبرنى باللحظة التى سيحدث فيها هذا الأمر لأعد نفسى بثياب العرس .

قال نيكتانيبوس :

ــ ما رأيته ــ مولاتى ــ فى البداية كان حلماً ، لكن الإله الذى ظهر لك فى الحلم ، هو نفسه الذى سيأتى لينام معك . فلتأذنى لى أن أظل بالقرب من حجرتك ، حتى لا يعروك الخوف من رؤية الإله !.

منحته الملكة حق الدخول إلى جناحها . وضاجع نيكتانيبوس الملكة فى الظلمة ، وقال وهو ينصرف عنها :

ــ أنت الآن حامل فى طفل ذكر سيكون المنتقم لك ، وسيصبح الملك الذى يغزو العالم المتحضر كله !

تعددت زيارات نيكتانيبوس لجناح الملكة حتى انتفخ بطنها . ولجأ نيكتانيبوس ــ ثانية ــ إلى أفعال السحر ، فلما عاد فيليب إلى مقدونيا قال للملكة :

ــ أنت لست مسئولة عما حدث ، إنما هناك من يلام على ذلك ، وما حدث ظهر لى فى الرؤيا بما يشير إلى براءتك ، ويدفعنى إلى عدم لومك . لكننا ــ نحن الملوك ــ نفعل ما نشاء ، ولا نستطيع أن نعارض الآلهة .

ثم راجع فيليب الأمر من بداياته ، وتسلل الشك إلى داخله ، حتى تنصت نيكتانيبوس ــ ذات صباح ــ على قوله لأوليمبياس : أنت لم تحملى من الآلهة كما تصورت ، ما حدث هو بفعل شخص أحبك ، فأقدم ــ سراً ــ على مضاجعتك . إذا ما وقع ذلك الشخص فى يدى فلن يجد منى إلا الموت !.

عاد نيكتانيبوس إلى سحره وتنبؤاته وتوقعاته ، حتى فرض التصديق على أوليمبياس وفيليب ، وعلى الجميع .

***

ولد الإسكندر ــ فى ظروف ولادة الأبطال ــ فى منتصف ليلة من ليالى الخريف العاصفة الممطرة . تعالت

فيها أصوات الهزات والبروق والرعود ، وشق السماء ــ وقت الظهر ــ برق تدفعه أشعة الشمس ، صنع من الألوان ما أذهل الجميع . اتسعت السماء ، فغابت الآفاق . انطلقت ــ حتى التلاشى ــ أسراب من الطير بلا عدد . حلقت آلاف الفراشات فوق الزهور البرية المتناثرة فى المدى . تضوعت روائح زكية بلغت كل الأمكنة ..

انتصر القائد بارمنيون ــ فى الليلة نفسها ــ على رأس قوات فيليب ، وخضعت مستعمرة بوتيديا اليونانية للملك المقدونى ، وفاز جواد الملك فى سباق ، وتكلم طائر فى قمة الأولمب بلغة البشر . تحدث عن بلاد الدنيا التى ينبغى أن تصبح بلداً واحداً ، يحكمه رجل من نسل الآلهة ، وجرفت مياه النهر أشخاصاً ، استيقظوا ــ بعد زوال المفاجأة ــ فى آخر جريان النيل ، قبل أن يلتقى بالبحر ، ومشى فى الأسواق شيخ عار ، وإن غطت ذقنه صدره . قال إنه لا يعرف هؤلاء البشر الذين التقى بهم ، وإن ناسه لم يكونوا يرتدون هذه الثياب ، ولا يمشون بين البنايات التى تختلف عن بنايات أيامه . حتى الأسماء والطعام والبشر ، ذلك كله بدا له غير مألوف . رجح أنه ينتمى إلى عصر مختلف .

اعتبر المنجمون ما حدث نبوءات بالمستقبل الذى ينتظر الوليد ..

قال فيليب المقدونى :

ــ أنا لا أريد أن أرى هذا الطفل لأنه ليس منى ، ولكن لأنه من الآلهة ، وحمت ولادته قوى الطبيعة ، فإنى سأرعاه رعايتى للطفل الذى أنجبته زوجتى الأولى ، وسأسميه الإسكندر.

أرسل فيليب إلى أرسطو : أكتب إليك لأخبرك بأنى رزقت ولداً ، فللآلهة منى خالص الشكر ، لا لمولد الطفل فحسب ، بل لأنه أيضاً ولد فى زمانك . أملى أن يصبح تلميذاً لك ، وأن يكون جديراً بانتسابه لنا ، خليقاً بأن يرتقى ذروة العرش الذى سيؤول إليه ..

* * *

أمضى الإسكندر عاميه الأولين فى رعاية أمه . كان أبوه مشغولاً فى جيشه الجديد ، وإعداده للغزوات والفتوحات . اختارت الأم لوليدها مرضعاً هى هيلانة . لازمته حتى بلغ ست سنوات . فى ذلك العام ، تيقن أهل مقدونيا من اختلاط العنصر الإلهى بدم الإسكندر . عرفوا ذلك فى توالى ظهور

المذنبات والشهب ، وتفجر البراكين ، وقصف الرعود ، ونزول الصواعق ، وحدوث الزلازل ، وتهاوى الشهب المذنبة ...

فى عامه السابع ، أخذ فيليب ابنه من المربية . عهد بتربيته إلى ليزيماكوس المنحدر من عائلة نبلاء . تقطن إقليم أكارنيا بالقرب من أبيروس الجنوبية . عينت أولمبياس ــ للعناية بولى العهد الطفل ــ قريباً لها هو ليونيداس . ظل ليزيماكوس على ولائه للإسكندر حتى الموت . أما ليونيداس فقد وسم الطفل بطابع الخشونة والتدبر قبل اتخاذ القرار ..

قال الإسكندر :

ــ كان من عادة الرجل أن يفتح الصناديق التى كنت أحتفظ فيها بأغطيتى وملابسى ، ويفحصها ليطمئن إلى أن أمى لم تعطنى شيئاً . لست فى حاجة إليه ، ولم يقدم لى ما يثير شهوتى ، أو يدفعنى إلى ارتكاب حماقات ..

* * *

وجد فيليب الثانى معارضة شديدة من خصومه ، عندما أزمع أن يوحد بلاد الإغريق تحت زعامة مقدونيا ، فتشن الدولة الموحدة حرباً ضد الفرس . ضعف اليونان أغرى

فيليب بغزوها ، وامتلاكها . هزم فيليب معارضيه فى موقعة خايرونيا [٣٣٨ ق . م] . تلقى الطاعة ، وجمع موظفوه الجزية . صار سيداً على شبه الجزيرة الإغريقية كلها . تحولت حرية الإغريق إلى عبودية محملة بالسخرية والمهانة ، وإن أعدت مقدونيا جيوش مقدونيا والإغريق للحرب ضد الفرس ..

اغتيل فيليب قبل أن يتم الإسكندر عامه العشرين ، لكن الناس فى مقدونيا وأثينا كانوا قد عرفوه ، وراهنوا على كفاءة الإسكندر السياسية والعسكرية . ورث عن أبيه دولة مثقلة بالديون ، ولم يكن يملك هو نفسه مالاً يعينه على تدبير الدولة . وكان يعانى عداء الأشراف المنافسين وقبائل الشمال ، وتفتت بلاد اليونان ، ورفضها الاعتراف به ..

بعد وفاة أبيه بأقل من عام ، كانت اليونان كلها قد خضعت لسلطان مقدونيا . خلت البلاد من مدينة واحدة تدين بالولاء لغير الإسكندر .

اسمه الإسكندر المقدونى ، فهو مقدونى إذن . ورث عرش اليونان ضمن الإمبراطورية التى أقامها أبوه فيليب

المقدونى . وكان ضباط الإسكندر من المقدونيين . وكان حكام مصر ــ الذين خلفوا الإسكندر ــ من أصول مقدونية .

الفصل الثالث

لم يعد شيء على حاله فى العالم كله ، بعد غياب الإسكندر . عصا التغيير لامست كل شئ .

لم يكن الإسكندر مجرد قائد جيش ، إنما هو قائد فكر فى البدء والختام ، هو الذى بث الفلسفة اليونانية فى العالم . أساطير اليهود ، وحكاياتهم الشعبية ، تجد فى الإسكندر خادماً ليهوذا صاحب عرش سليمان ، وأحد حكام العالم الروحانيين الذين جاءت بهم نبوءة دانيال ، وثمة كنائس مسيحية ترفع الإسكندر إلى مراتب القديسين المسيحيين ..

لما تولى عرش مقدونيا ، كان يخطو إلى السابعة عشرة . ولم يكن قد جاوز العشرين حين جمع الإغريق تحت قيادته ــ بعد مقتل أبيه ــ وسار بهم إلى آسيا الصغرى . يرسم خريطة المعركة ، يطمئن إلى حشود القوات ، يتقدم جنوده فى خوض المعارك ، يحارب بالسلاح نفسه الذى يستخدمه الجنود . هزم دارا ملك الفرس فى موقعتين متتاليتين ، ومضى بمحاذاة الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط . استولى على المرافئ التى كان يحتلّها أسطول الفرس .

حين قدم الإسكندر إلى مصر كان قد سبقته أعوام من الاضطرابات والثورات والمذابح الوحشية . عانى المصريون إفقار بلادهم ، ونهب ثرواتها ، والقضاء على كل المظاهر الحضارية فيها ، ومنع تكوين جيش مصرى ، أو وجود قيادات وطنية .

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يدخل فيها الإغريق . تعدد دخولهم إليها متحدين مع المصريين ضد الفرس ، عدوهم المشترك . اختلف الأمر حين قدمت حملة الإسكندر للغزو لا للتحالف .

رحب المصريون بجيش الإسكندر ، وانضموا إليه لتحرير بلادهم من استعمار الفرس . الحاكم الفارسى مزاكيس سلم مصر دون شرط إلا النجاة بنفسه . دفع ثمانية ملايين جنيه من الذهب ، وكنوز ونفائس كانت تضمها القصور الملكية المصرية . وكانت غزوة الإسكندر آخر عهود مصر بحكم الفراعنة . ظلت ألف سنة تحت حكم المقدونيين والرومان حتى صارت ــ بعد الفتح العربى ــ جزءاً من دولة الإسلام ، ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

* * *

حين أقام الإسكندر ليلته الأولى فى مدينة " كانوب " ــ أبو قير الحالية ــ رأى فيما يرى النائم شيخاً أحاطت ذقنه بوجهه ، وتدلت على صدره . أنشد أبياتاً من الشعر يقول فيها :

" هناك فى وسط البحار التى تعوم فيها مصر ..

قامت جزيرة فاروس ..

التى يعرفها الجميع " .

فى الصباح ، سأل الإسكندر :

ــ لمن هذه الأبيات ؟

قال أحد ضباطه :

ــ إنها لشاعر الإغريق هوميروس .

ــ وأين الجزيرة التى تحدثت عنها القصيدة ؟

ــ فاروس .. فى موضع شاطئ قريب .

وهو يتجه بنظراته إلى نقطة غير مرئية :

ــ أريد أن أراه .

مضى الموكب إلى قرية راكونداه ، راقودة ، راكوتيس Rhakotis . يسكنها جماعات من الصيادين والملاحين المصريين .

صعد إلى ربوة من الحجر الجيرى ، شاهد من فوقها تناثر البنايات إلى جزيرة فاروس بامتداد الشاطئ .

قال الإسكندر وهو يشير إلى تعرجات الشواطئ :

ــ هذا المرفأ ــ إن أحسن إعداده ــ يصلح لاستقبال سفن الإغريق الحربية والمدنية .

وتباطأت الكلمات فى فمه :

ــ أستطيع من هذا الموقع أن أسيطر على البحار ، وأسيطر على الأرض أيضاً .

وأشار إلى القرية الصغيرة ، وقال :

ــ هنا سأبنى عاصمة ملكى ..

التفت إلى مهندس الجيش دينوكراتيس ، وقال :

ــ أريد أن تحول هذه القرية إلى مدينة يتحدث العالم باسمها ..

لعله دينوكراتيس الذى حقق حلم قائده فى أن يبنى مدينة ــ باسمه ــ تطل على المتوسط ، بعد أن دمر ــ الإسكندر

ـــ برسبوليس ، مدينة قورش التى ظلت عاصمة الفرس مائتى عام .

قبل سبعمائة عام هدم البيزنطيون مصباح منارة الإسكندرية . عرفوا أن المرآة التى ترشد السفن وهى فى عرض البحر ، تخفى تحتها كنز الإسكندر . تدخّل أهل الإسكندرية بعد أن هُدِم الطابقان العلويان .

كانت تلك من أقدم المحاولات للبحث عن الكنز الطلسم ..

كانت رأس التين جزيرة ، رفض ـــ لضيق المكان ـــ أن يبنى المدينة فوقها ، وإن شيد فيها ضريحاً لصديقه هيفايستيون Hephaestion

من أين جاءت تسمية رأس التين ؟..

قيل إنها كانت جزيرة عامرة بأشجار التين ، تمتد أرضها الرملية داخل البحر على صورة لسان ، فسميت رأس التين . وفى رأس التين سالت دماء كثيرة . شهدت الحروب الصليبية ، وحملة نابليون ، وغزوة فريزر . وخرجت مظاهرات ثورة ١٩١٩ من جامع أبو العباس .

من الأوفق أن أهمل البحث فى رأس التين .

***

في نهاية المينا الشرقية [هو الميناء الشرقى للإسكندرية ، لكن أهل المدينة يسمونه المينا الشرقية . هذا هو الاسم الذى اخترته] . ملت إلى الطريق المفضية إلى قلعة قايتباى . الوقت بين الظهر والعصر . البنايات المتلاصقة تنعكس على صفحة المياه متماوجة ، ملتمعة . عيناى تتجهان ناحية البحر : الأمواج والصخور والأحجار المثقوبة والطحالب والأعشاب والبلانسات والفلايك والأشرعة والصوارى والقلوع وطيور النورس والسحب البيضاء المتباعدة . وثمة باعة الفول السودانى واللب والكوكاكولا والساندوتشات والهدايا السياحية ..

كنت مشغولاً بالأسئلة : لماذا بنيت فى هذا المكان منارة الإسكندرية ؟ ولماذا بنى الأشرف قايتباى قلعته ؟ ولماذا اختار الإسكندر ملتقى الميناءين الغربى والشرقى ليبنى المدينة موضعه ؟ لماذا أهمل رشيد ، وكانت ميناء يطل على البحر المتوسط قبل إنشاء الإسكندرية بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ؟ لماذا اختار الإسكندر هذه المنطقة بالذات ؟ هذه القرية الصغيرة راكوتيس ، ليبنى مدينته ؟..

في عام ١٩٦١ كان أول اكتشاف للآثار الغارقة فى منطقة قلعة قايتباى . عثر عليها الغواص المصرى كامل أبو السعادات . شاهد فى غوصه العديد من التماثيل والكتل الحجرية الغارقة . توالت ــ بعد ذلك ــ عمليات الغوص ، واكتشاف المزيد من الآثار . توصل المسح الأثرى إلى تحديد مواقع ثلاثمائة وألف قطعة أثرية ، وأنواعها : أمفورات ، تماثيل ، أعمدة ، بقايا مسلات ، كتل حجرية تحمل نقوشاً وكتابات هيروغليفية ويونانية . أزال الغواصون الرواسب والرمال والتكلسات البحرية المتراكمة فوق بقايا الأرصفة والقطع الأثرية .

البعثة الفرنسية ــ برئاسة جون إيف أمبرو ــ انتشلت ــ أسفل تمثال بطليموس الثانى ، أربعة أجزاء ، الذراع والرأس والتاج والجذع ، من الجرانيت الوردى . طوله أكثر من ١٢ متراً ، ووزنه ٢٨ طناً ..

لو أن البعثة واصلت الحفر ، ربما وصلت إلى ما قبل بطليموس الثانى . الإسكندر لم يطلب دفن جثمانه ــ بعد الرحيل ــ عفواً ولا مصادفة . خطوة محسوبة يعرف نتائجها

. المكان ليس عادياً . ظنى أنه المكان الذى دفن فيه جثمان الإسكندر ..

كتب دينال : لما رأى الإسكندر الأكبر مصر الواقعة بين بحرين ، وبين الشرق والغرب . قرر أن يجعل منها حاضرة إمبراطوريته ، ويتخذها مركزاً للتجارة العالمية . فطن نابغة الفاتحين إلى أنه إذا كانت هناك وسيلة للجمع بين فتوحاته كلها فى دولة واحدة ، فإن مصر خلقت لتصبح همزة الوصل بين إفريقيا وآسيا وأوروبا . وجد فى انحناءات الساحل ما يعد بمرفأ طبيعى تتحصن فيه أساطيل الإغريق ، وتنطلق منه لتسيطر على العالم ..

أشار الإسكندر إلى مهندسه دينوكراتيس ، وقال :

ــ أريد أن أبنى فى هذا المكان مدينة ..

مرتفع من الحجر الكلسى ، جاف ، أعلى من مستوى الدلتا . يسهل وصول الماء إليه ، تفيه بحاجته إلى الشرب ، وإلى الملاحة ، ولا يتأثر بالطمى الذى يأتى به فرع كنوبس ــ أبو قير الحالية ــ . إذا وصلها بجزيرة فاروس حاجز خارجى ، تحولت إلى ما يشبه المرافئ المتصلة ، تمنع

الرياح والأنواء من التأثير على الميناء ، وتأذن برسو الأساطيل المقدونية ..

لم يكن مع دينوكراتيس ــ حين أصدر الإسكندر أمره إليه ببناء الإسكندرية ــ أية أدوات تعينه على الرسم . أخذ حفنة من دقيق الشعير ، ورسم المدينة المشروع على هيئة هلال مفتوح نحو الشرق . فى أعلاه جزيرة فاروس ، وفى أسفل رأس لوخياس ، السلسلة الآن .

وافق الإسكندر على مواقع ، ورفض مواقع ، وأبدى ملاحظات . فوجئ ــ والجميع ــ بأنواع لا حصر لها من الطير ، تهبط على دقيق الشعير الذى استعمل فى التخطيط لرسم المدينة ، وتلتهمه تماماً . داخل الإسكندر قلق ، وغلبه التشاؤم . كانت نفسه تميل إلى الفأل والطيرة ، وتؤمن بالسحر والتنجيم . لاحظ الكهنة ما وسم ملامحه من الكدر . قالوا :

ــ ما حدث فأل طيب .. دقيق الشعير دليل على الوفرة لا الجدب . المدينة ستكون وافرة الخير والثمار ، وسيطعم من خيرها أعداد كبيرة من السكان !.

أصدر الإسكندر أمره ببدء العمل فى المدينة .

وضع حفل الأساس للمدينة الوليدة فى صخب الأغنيات والرقصات والعروض المسرحية والشعرية ، وما اشتهر به الإغريق من ألعاب ..

ربط دينوكراتيس جزيرة فاروس بالشاطئ ، بساتر من الأتربة ، نتج عنه ميناءان ــ حدثتك عنهما ــ : الميناء الكبير ــ الميناء الشرقية الآن ــ والعود الحميد ــ الميناء الغربي الآن . تبدل اتجاه مصر . لم تعد تتجه إلى إفريقيا ولا آسيا ، وإنما أصبح الاتجاه نحو البحر المتوسط ، نحو حضارة الإغريق ، وحضارة الغرب .

ظل أهل الإسكندرية يضعون قطع الحرير الأسود على وجوههم سبعين سنة ، بعد أن بناها الإسكندر . كانوا يخشون على أبصارهم من أن يخطفها بياض الرخام الناصع الذى كسا جدرانها . لاحظ عمرو بن العاص ــ فى رسالة للخليفة عمر بن الخطاب ــ أن ضوء القمر الذى ينعكس على الرخام ، يجعل المدينة تسبح فى شلال من النور . الداخل إليها يغطى عينيه براحته ليحجب عنهما وهج الرخام . الترزى لا يحتاج إلى مصباح كى يلضم الخيط فى الإبرة

يداخلنى ما يشبه اليقين أن كنز الإسكندر مدفون تحت فاروس . فى داخل الكنز طلسم ، يختلف عن طلسم المعتقد الذى يذود عن الإسكندرية الحدآت والغربان .

مهمتى أن أواصل الحفر والتنقيب ، حتى أعثر على القبر ، على الكنز فى القبر ، على الطلسم فى الكنز ..

كنت معيداً فى كلية الآداب ، حين انتشل تمثال إيزيس من الميناء الشرقية . ضخم ، من الجرانيت الأحمر ، طوله سبعة أمتار ونصف المتر ، ومشطور نصفين . رافقت نقله إلى حديقة المتحف البحرى . شاركت الغواصة العالمية " أونور فروست " فى وضع خريطة علمية للآثار الغارقة فى الميناء الشرقية . صارت مرجعاً مهماً لكل عمليات التنقيب التالية . كان طاقم الغواصة ممثلاً لهيئة اليونسكو ، وكنت واحداً من ممثلى جامعة الإسكندرية . مدرساً مازلت ، لكننى كنت موضع ثقة أستاذى رأفت الإبيارى . اطمأن إلى اجتهاداتى ، فجعلنى ممثلاً للجامعة ..

* * *

نسب إلى صياد قوله : " نحن مؤسسو هذه المدينة " . بمعنى أن الصيادين هم أصل الإسكندرية ..

كان الناس يشتغلون ــ فى البداية ــ بصيد الأسماك . فى العصور الوسطى كانت السفن الأجنبية ــ وحدها ــ ترسو فى الميناء الشرقى ، بينما سفن المسلمين ترسو فى الميناء الغربى . أبطل الانتفاع ــ فيما بعد ــ بالميناء الأولى . منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، صارت الميناء الغربية مرفأ للبواخر والبضائع على السواء . وحتى حفر قناة المحمودية فى ١٨٢٠ كانت الإسكندرية ــ المدينة ــ ما بين المينا الشرقية والمينا الغربية . بعدها ، ولدت المدينة من جديد ..

إلى أوائل القرن التاسع عشر ، كان بحرى يمثل الإسكندرية كلها . وكانت المدينة تقتصر على حى الجمرك وحى المنشية ، مناطق الصيادين وغازلى الشباك والأفندية والمشايخ والأبوحمدات والبحارة وعساكر السواحل ومساجد المرسى أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى وعلى تمراز ونصر الدين وميدان المساجد ومعهد الأحياء المائية وحلقة السمك وطابية قايتباى والسيالة وجودة وصفر باشا والحجارى والمسافرخانة ، وما يتفرع منها ، ويحيط بها ، من شوارع وحوارى وأزقة .. والميناء : حدوة الحصان التى

تمتد ما بين قلعة قايتباى ــ غرباً ــ وقصر رأس التين ــ شرقاً ..

حتى الآن ، فإن الإسكندرية عندى هى تلك المنطقة ما بين سراى رأس التين وميدان المنشية ، وما يتصل بها ، ويتفرع منها ، من ميادين وشوارع وأسواق وبنايات ..

الفصل الرابـــع

اسمى وليد صبحى . أعمل أستاذاً مساعداً للتاريخ القديم بكلية الآداب ، جامعة الإسكندرية . حاضرت فى جامعات عربية وأوروبية ، وأمضيت فى اليونان ستة أشهر ، وأشرف على الجوانب النظرية والعلمية فى التنقيبات التى تجريها المراكز والبعثات ، وتتصل بتخصصى ..

ومضت الوثيقة كالفكرة المفاجئة وأنا أقرأ كتاباً عن عهد الإغريق . تحدث عن وثيقة مهمة أوصى الإسكندر ــ بعد أن تبدت ملامح الموت ــ بأن توضع فى قبره . أهم ما تحويه الوصية إبانة عن الطلسم الذى يحمى الإسكندرية من شر البحر . أهمل الكتاب ما تضمنته الوثيقة ، وإن تحدث عن خطورتها ..

تعددت محاولات البحث عن قبر الإسكندر ، أثريين وأساتذة تاريخ وهواة وحالمين . أخذتنى الدهشة حين قرأت فى كمبيوتر القسم أن عدد المحاولات قارب المائة والخمسين . كنت قريباً من محاولات الجرسون اليونانى ستليو فى قلب

شارع النبى دانيال . أنفق الحلم والمال فى مدى أربع سنوات . ثم منعته هيئة الآثار من الحفر ، فبكى ..

زوجتى نجلاء أحمد شكرى . طبيبة أمراض نساء وولادة . اكتفت بعملها فى مستشفى جمال عبد الناصر . رفضت اقتراحى بأن تفتح ــ أو تشارك فى ــ عيادة :

ــ صحتى لا تحتمل عناء العمل فى مكانين ..

ثم بلهجة باترة :

ــ الإنفاق على البيت واجب الزوج ..

ــ وتستطيعين الاستقالة من المستشفى أيضاً ..

ــ أعمل لأنى لا أقدر أن أحبس نفسى فى البيت ..

زفرت :

ــ حيرتنى !..

ــ لماذا ؟.. أعمل بما تقوى عليه صحتى ..

ــ المال ليس هدفاً ..

ــ يعمل الناس لجمع المال ..

ورفت على شفتيها ابتسامة تشى بتعمد السخرية :

ــ نحن نجمع المال لنصرف على الأوراق والحشرات والتراب ..

تنحنحت لأزيل احتباس صوتى :

ــ تلخيص غريب لحياتنا ..

هزت رأسها مؤمّنة على ما قلت :

ــ تلخيص دقيق ..

لما أظهرت فزعى للجمجمة البشرية ، وضعتها على مكتبها ، وراحت تعبث فى ثقوبها بقلم رصاص ..

ــ تنقيباتك تنتهى إلى مثل هذه الجمجمة ..

وأنا ألتفت إلى الناحية المقابلة :

ــ الوضع يختلف .. ما أعثر عليه يعود إلى مئات السنين ..

ــ وما الفرق ؟..

ثم فى لهجة يداخلها أسى :

ــ مصيبتى أنى تزوجت أستاذاً جامعياً يحشو رأسه بخرافات ..

بدا الأفق وردياً فى كلمات ما قبل الزواج . من المهم أن تخصص حجرة لأبحاثك . وقت المرضى فى المستشفى ، ووقت زوجى فى البيت . ثم تبدلت الصورة تماماً . لم نعد نتحدث اللغة نفسها ، ولا يشغلنا الاهتمام ذاته . عملها

التوليد وإنجاب الأطفال ، دون أن تناقش نفسها فى المعنى ، أو تحاول التعرف إلى شاغلى الحقيقى ، إلى مئات الأسئلة التى تختلط فى داخلى ، وتتشابك . أحسست أن نجلاء ، والناس ، يقاومونني ، وأنهم يحرصون على مضايقتى ، وتثبيط همتى . قالت إن الحياة أقصر من أن أنشغل فيها بتوقعات قد لا تأتى . المستقبل هو ما نحياه . من يأتون بعدنا يحيون المستقبل ، حياتهم . لا شأن لى بالخوف من توقعات مصدرها الخيال .

يشغلنى أن أنقذ الإسكندرية ، فأنقذهم ..

قلت :

ــ ارتفاع مياه البحر لا رجعة فيه . لا حل إلا باكتشاف الطلسم ..

أطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسى :

ــ أثق أنه هو الحل لإنقاذ الإسكندرية .

واتجهت عيناى إلى نقطة لا أتبينها :

ــ لم أعد أكره البرد ، ولم أعد أحب الدفء ..

استطردت لنظرتها الداهشة :

ـــ البرد يعنى ثبات ارتفاع أمواج البحر على حاله ، والدفء يهدد الإسكندرية بالابتلاع .

مدت شفتها السفلى ، دلالة عدم الفهم :

ـــ ولماذا الإسكندرية ؟

ـــ الإسكندرية وكل مدن البحر المتوسط . الفرحة بالشمس المشرقة ستنتهى بالحزن لاختفاء مدن وأراضى ..

الجليد يذوب فى القطبين الشمالى والجنوبى ، وفى بقية حقول الجليد . ترتفع المياه ، وترتفع مساحاتها . المساحة التى تحصل عليها من الأراضى المتاخمة لها . إذا كان الدفء ـــ والشواهد كثيرة ـــ هو مستقبل العالم ، فإن ذوبان الجليد يهدد المستقبل بارتفاع مياه البحار والمحيطات . يرتفع متوسط درجة الحرارة ما بين درجة ونصف إلى أربع درجات ونصف ، فى مدى الأعوام القادمة ـــ أربعون ، أو ستون ، أو مائة ـــ فإن سطح البحر قد يرتفع متراً فى الفترة نفسها .

قلت :

ـــ الفيضان قادم إذا لم يتحرك الجميع لوقف الخطر .

وحملت صوتى نبرة تحذير :

ـــ إذا انتظرنا قدوم أول فيضان ، فربما يأتى التحرك متأخراً للغاية .

الفصل الخامس

عدت إلى مذكرات مــؤرخ الإســكندر كاليســتينيس . عاصر الإسكندر ، وكتب ما رآه فى حياته ..

رحلة الإسكندر تبدأ من بلاد الإغريق فى أوروبا ، إلى مصر فى إفريقيا ، إلى بلاد آسيوية . بدأ مغامرته فى ربيع ٣٣٤ ق . م . كان قد درس فنون القتال على يد العسكرى العظيم أبا منانداس الطيبى . رتب شئون دولته ، ووزع أمور الإدارات على من يثق فى قدراتهم ، فلم يبق لنفسه أى منصب ..

قال له صديقه برديكاس :

ــ وماذا يبقى لك ؟

قال الإسكندر :

ــ الأمل ..

أردف لأصحابه :

ـــ نحن فى طريقنا إلى الغزو . وعلينا ألا نطمع فى أكثر من جزء من هذا الأمل . فلنترك الأرض ونتجه نحو الآمال !

كان فى الرابعة والعشرين من عمره ، حين استقل المركب على رأس قواد وجنود ، اخترق القناة الموصّلة بين كانوب (أبو قير) إلى بحيرة مريوط . أشقر الملامح ، وإن لوحت الشمس لون البشرة . حاجباه كثيفان ، عيناه غائرتان ، مستقرتان ، تطل منهما نظرة حادة . يرتدى عباءة بيضاء ، زينت عنقها وأطراف الكمين خيوط رفيعة مذهبة وحمراء ..

ما الذى استوقفه فى هذه المنطقة ، ودفعه لأن يبنى عليها مدينته ؟. هل أراد أن تكون المدينة الجديدة جسراً بين الشرق والغرب ؟..

مصر مربّع فى قطعة شطرنج هى العالم . الحلم الذى شغل عمره القصير أن يحقق أمنية أخناتون المصرى فى أن تتحد كل شعوب الدنيا . تصبح شعباً واحداً ، بلداً واحداً ، واسعاً ..

كان أول من اكتشف العالم . وكان يتطلع إلى المعرفة دوماً ، ويبحث عن المجهول ..

القرية الصغيرة المسماة راكوتيس ، شغلت موقع الإسكندرية قبل أن تنشأ المدينة على شاطئ البحر المتوسط . لم يشر هيرودوت ــ فى زيارته إلى مصر عام ٤٦٠ قبل الميلاد ــ إلى راكوتيس ، كما أشار إلى مدن مثل ماريا وأبيس إلى الجنوب ، وكانوب إلى الشمال الشرقى .

راكوتيس ، اسم الأرض التى وقف فوقها الإسكندر . قرية ، أو مساحة من الأرض ، لكنها لم تكن خالية من البشر ، السكان الذين يعملون بالرعى ، وبالصيد والمهن المتصلة به ، وهى المهن التى يعمل بها فى زمننا الحالى أهل حى بحرى ..

راقودة هى الإسكندرية ، هى قرية ما قبل الإسكندرية .

حين قدم الإسكندر إليها كانت تستوعب أهلها . وكانت توجد بحيرة مريوط ، والقناة التى تصب فى ميناء قديم هو كيبوتوس . قيل إنها لم تكن معروفة . لا أحد يعرف عنها شيئاً . قدم الإسكندر فى حملة لغزو الشرق . همّه ألاّ تنحصر حضارة الإغريق فى بحر إيجة . بدت أثينا غير صالحة لأن تكون عاصمة الإمبراطورية الجديدة [امتدت ــ بعد ذلك ــ حتى شواطئ الهند والخليج] . قرر أن يصبح

موقع راكوتيس هو العاصمة الجديدة . تطل على البحر المتوسط ، وقريبة من إفريقيا وآسيا وأوروبا .

قال ياقوت الحموى : " وقبل أن يبدأ الإسكندر فى بناء المدينة ، رأى فى منامه كأن رجلاً قد ظهر له من الهيكل وهو يقول له : إنك تبتنى مدينة يذهب صيتها فى أقطاب العالم ويسكنها من الناس ما لا يحصى عددهم ، وتختلط الرياح الطيبة بهوائها ، ويثبت حكم أهلها ، وتصرف عنا السموم والحرور ، وتطوى عنها قوة الحر والبرد والزمهرير ، وتبعد عنها الشرور حتى لا يصيبها من الشياطين خبل ، وإن جلبت عليها ملوك الأرض بجنودهم ، وحاصروها ، لم يدخل عليها ضرر " .

أشار القائد الأعلى لعصبة المدن الإغريقية إلى دينوكراتيس ، قال :

ــ أريد أن أبنى فى هذا المكان مدينة ..

اختار الموقع لأنها محفوفة بمياه بحرين : البحر المصرى من الشمال ، وبحيرة مريوط من الجنوب ..

واصل السير غرباً حتى بلغ عيون الماء ، وأشجار النخيل . زار معبد آمون ، وجعله أباه . اعترف الكهنة

المصريون بالإسكندر ابناً شرعياً للإله أوزوريس ، شريطة أن يحج إلى موطن الإله ماشياً ، حافياً ، وقام المقدونى بالرحلة ..

تروى برديات بطليموس الأول أن الإسكندر ضل طريقه فى الصحراء . صحبه العديد من الخوارق والغرائب والأعاجيب . اقترب الأفق وتباعد ، وتوهجت قمم الجبال والصخور والرمال . تعالت صلوات بلغة غاب فهمها عنه ، وترامت موسيقا من أمكنة علوية . اختلط ضوء الشمس بضوء القمر حتى غلب النهار . علت السماء زرقة لم تشهد الأعين مثل صفائها من قبل . هطلت الأمطار فى غير موعدها ، فأنقذت الإسكندر ــ والجماعة التى صحبته ــ من العطش . حلقت فى السماء كائنات كالطير ، وإن لم تكن كذلك ، ألوان ريشها هى ألوان قوس قزح ، وتصدر من مناقيرها أصوات كأنها الصلوات أو الأدعية . علا الموكب غرابان لينبها إلى الأخطار التى تضمها الصحراء ، تقدمه أفعوانان يصدران صوتاً تمضى القافلة فى أثره ، حتى ظهرت الكوبرا ، سيدة الحياة ، أمام الموكب ، وقادته إلى معبد آمون . سور من الحجارة ، حول فناء مستطيل .

الهيكل يحتوى على عدد من الأبهاء والقاعات . أقيمت على عمد ، تفضى ــ بواسطة حجرتين ــ إلى المحراب الأقدس ، قدس الأقداس ، فى نهاية المربع الرئيس . المحراب حجرة تحيط بها كتل صخرية هائلة . فى وسطه الزورق المقدس ، مصنوع من الخشب الموشى بصفائح الذهب ، على مكعب من الخشب ..

استقبله الكهنة بالقول : يا ابن آمون .. سلاماً !.

أذنوا للإسكندر ــ وحده ــ أن يدخل إلى المعبد فى ثيابه العادية . ظل مرافقوه فى الخارج يتلمسون سماع كلمات الوحى . أدخله الكهنة إلى قدس الأقداس . تلقى النبوءات بالإشارات والرموز ، وبالقليل من الكلمات . الكاهن يشد الحبل ، فيحرك رمز الإله . يحرك رأسه وذراعيه ، ويشير بيديه ، وينطق الكاهن بالنبوءة . ينطقه بها الإله الذى يتقمص جسده . يجرى الكلمات على لسانه ..

سأل الإسكندر :

ــ هل الإله أبى سيهبنى حكم الأرض كلها ؟

أتاه الجواب :

ــ سيحقق الإله لك هذا ..

سأل :

ــ هل عاقبت الآلهة من اشتركوا فى قتل أبيه فيليب ؟

أتاه الجواب :

ــ هذا السؤال كفر ، فأبوه هو الإله ، والإله لا يمكن أن يؤذى !

أيقن الإسكندر أنه ابن الإله آمون ، وأن أباه الإله وهبه رقاب كل البشر ، وكل الأراضى التى تطلع عليها الشمس ..

لم يكن احتفاء كهنة آمون بالإسكندر اعتقاداً بأنه ابن الإله الأعظم . ذلك ما كان يحدث مع كل من تبوأ ملك مصر ، منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد . كان آمون يهب أبناءه رقاب كل الأحياء ، وكل الممالك ، وكل الشعوب ، وكل الأرضين التى تغشاها دورة الشمس ..

ما كاد الإسكندر يدخل محراب الإله آمون ، حتى تناهى صوت الإله يناديه بالقول :

ــ يا بنى ..

سأل الإسكندر ، وأجاب الإله بحركات يديه ، وإيماءات رأسه ، وقال :

ـ إنك ابنى ، وإنى أعطيتك الشجاعة ، وأمرتك أن تحضر لزيارتى . إنى أمنحك السيطرة على كل البلاد ، وكل الأقطار الأجنبية تحت قدميك ..

لعله ذو القرنين الذى تقصده الآيات القرآنية . سمى " ذو القرنين " لأنه ارتبط بآمون حين زار واحته . أراد أن ينسب نفسه إلى واحة سيوة ، وإلى الإله آمون . نصب نفسه ابناً له ، ووضع على رأسه القرنين المقدسين لكبش طيبة ، للتدليل على نسله الإلهى .

هل وضع الإسكندر تاج آمون على رأسه ، لأنه كان يؤمن بألوهيته ، أو لأنه أراد أن يرضى المصريين ؟

كانت آلهة مصر هى آلهة الإغريق . وكان آمون معبود أهل مصر ، والناس فى ولايات إليس واسبرطة وأثينا يقدسونه . وكان الآلاف يمضون إلى معبد آمون فى سيوة ، يطرحون مشكلاتهم ، ويلتمسون العدالة ..

غادر الإسكندر مصر بعد أقل من شهرين على زيارته لسيوة . مضى على رأس قواته إلى بلاد ما بين النهرين . عاد إلى الشرق من حيث أتى . ظلت الرحلة إلى سيوة تكويناً

ثابتاً فى نفسه : الوقوف بين يدى آمون ، التزود بالتعاليم والنصائح ، الانتساب المعلن للآلهة ..

بدت انتصاراته كضوء الشمس . من المستحيل على المرء ألا يراه إلا إذا أغمض عينيه . وكان المحيطون به على يقين أنه يملك من الصفات والقدرات ما لا يملكه البشر ، وأن الرسالة التى يحملها تنطلق إلى العالم كله . يصبح الإغريق جنساً متفوقاً ، يتحد الشرق والغرب من خلال الزيجات المختلطة ..

بعث دارا ملك الفرس بسفارة إلى الإسكندر . عرض عليه نصف دولة الفرس ويد ابنته ، وعرض الصلح .

رفض الإسكندر ما عرضه دارا ، وقال لسفارته : قولوا له إن البلاد كلها للإسكندر ، لكنه لا يأبى على دارا شيئاً . ولو أقبل دارا بنفسه يطلب ما يريد ، ما رددناه .

التقى بدارا فى معركة ثالثة ، فاصلة ، معركة جو جاميل . صرع ملك الفرس ، وقضى على جيشه . ودخل ــ فى أوائل ٣٣٠ ــ عاصمتى فارس ، مدينتى سوسا وبروسوبوليس .

كانت مضاعفة نسائه هى الخطوة التالية لانتصاره الكبير . أعداد هائلة من النساء راكبات ظهور الجياد ، وداخل العربات المغلقة ، تضم مئات الجوارى والسبايا ، من بينهن والدة دارا وزوجته . وثمة أعداد أخرى من الغلمان كانوا يؤدون ـــ فى حجرات النوم ـــ دور النساء ..

أعلن نفسه ملكاً على فارس ، بعد أن أصـــبح رئيســـاً لليونان ، وفرعوناً لمصر . بسط ســـيطرته علـــى عواصـــم الإمبراطورية الفارسية . حرق القصـــور . اســـتولى علـــى احتياطى الإمبراطورية من الذهب . وضع شـــباب الفـــرس تحت إمرة الضـــباط المقـــدونيين ليصـــبحوا جنـــوداً فـــى إمبراطوريته الجديدة .

توالى إخضاعه لولايات آسيا الصغرى . اجتاح بـــلاد اليختيار وبلاد الهند . وقف على حافة العالم عنـــد مشـــرق الشمس . قفل عائداً إلى بابل .

عندما دخل بابل ، قيل له إن أهلها سيركعون أمامك ، فاعتقادهم أن مردوخ هو الذى دفعك إلى المجـــد . ارتـــدى الإسكندر التاج لأول مرة فى تاريخ اليونانيين المقـــدونيين . نقل الفكرة من فارس . نقلها ـــ من بعده ـــ خلفاؤه

صيدا هى آخر المدن التى سقطت فى ٣٣٢ ق . م .

اتسعت إمبراطورية الإسكندر . زادت على مليون ميل مربع . ضمت أمماً إغريقية وعبرانية وعربية وفارسية وفلسطينية وسورية وأرمينية وبابلية ومصرية ومديانية وبارثية وفارسية وأفغانية وهندية . يقينه أن العالم كله دولة واحدة . يجب أن يكون دولة واحدة . مقدونيا واليونان موطنه ، لكن العالم وطنه .

حاول الملك الهندى هيداسبيس أن يدحر جيوش الإسكندر بأعداد هائلة من الفيلة . أمر الإسكندر ، فصنعت خيول من النحاس . ملئت أجوافها بالنفط والكبريت ، ووضعت على عجل . رفعه الجنود بالخيول المشتعلة . ارتبكت الفيلة ، وتملكها الخوف . نشرت خوفها فى جيش الهنود . عفا الإسكندر عن الملك المهزوم ، ورده إلى عرشه . أهمل ــ لتحقيق هدفه ــ ما كانت تعثر به قدمه من حصى .

بلغت جيوشه بلوشستان . أمر ببناء الإسكندرية . مدينة ثانية غير التى أمر بها فى راكوتيس . أطل على البنجاب ،

وعبر نهر السند . تصور قادته أنهم وصلوا إلى آخر الدنيا ، فغلبهم الخوف ..

ضاق جنود الإسكندر بتوالى الغزوات . فترت حماستهم فى مواصلة التقدم . دعاهم الإسكندر إلى اجتماع خاطبهم فيه بالقول :

ــ ألاحظ أنكم لم تعودوا تخوضون المعارك بالروح القديمة التى تطلب النصر . وقد طلبت لقائكم للبحث عن إجابة السؤال : هل نواصل التقدم أو نعود من حيث بدأنا ؟

أضاف :

ــ لعلى كنت أعفيكم من اللوم لوهن عزيمتكم لو أننى لم أشاطركم خوض المعارك . لم أترككم تموتون فى ساحة القتال وأكتفى باكتساب الصيت . معاركنا جهد مشترك بيننا جميعاً ، وما جنيناه من انتصارات هى لكم وليست لى ..

أعطى الإسكندر قواد جيشه الحرية لكى يقرروا ما يجب فعله . فاجأوه بطلب العودة إلى أرض اليونان . تتواصل الحرب حتى نسيطر على العالم . وماذا بعد ؟

سأل واحد من ضباطه :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى حيث يبقى إنسان ..

ــ فامض وحدك إذن . قتلنا الحنين إلى أهلنا ..

قدم الإسكندر قرباناً ليجد علامة التفاؤل . تعددت العلامات تشى بعكس ما تطلع إليه . صارت العودة هى الفعل المتاح . استعاد قول الحكيم الهندى دانداميس : إن الرجال الذين تقودهم لا يحصلون على شئ فيه الخير من استيلائهم على مساحات لا نهائية لآفاقها فى الأرض والبحر . كل ما فى الأمر أن رحلات الانتصار ــ يرافقها الموت ــ ستظل قائمة لتواجه الموت كذلك فى النهاية !. استعاد ما قاله حكيم فارسى : ما ينبغى أن تعرفه ، أن كل إنسان لن يملك من سطح الأرض إلا مثل المساحة التى يقف فوقها . وحين يأخذك الموت فلن تملك من الأرض حتى مساحة الأرض التى تدفن فيها ..

أمر الإسكندر ــ بإصرار التقدم ــ أن يحفر له الجنود قبراً . تمدد فيه وقال :

ــ أهيلوا التراب على أبيكم ، فقد مات ..

أحزن القادة خيبة أمل الإسكندر . جددوا له العهد على أن يمضوا معه إلى حيث يقودهم

عاجله الموت وهو فى الثانية والثلاثين من عمره . مات فى بابيلون عام ٣٢٣ قبل الميلاد .

كان قد أعد نفسه لغزو الغرب ، بعد أن غزا الشرق . أمر قواته بأن تستعد لتستكمل ما بدأته . ثم شعر فى أوائل يونيو ٣٣٢ بتعب ، فأهمله . ازداد شعوره بالتعب . حدس أنها الحمى . رافقتها سخونة وإعياء ، وأدرك قواده أنه ودع الحياة ..

هل كان موت الإسكندر نتيجة الإجهاد ؟ أو لإصابته بالملاريا ؟ أو لإصابته بالحمى بعد أن ألقى بنفسه ـــ وهو يتصبب بالعرق ـــ فى نهر كيدنس البارد بطرسوس ؟ أو لأنه تناول كأساً من السم أعطاه له طبيبه باعتباره دواء ؟..

المؤكد أنه لم يمت فجأة . سبق المرض موته ..

سأله أحد القواد :

ـــ اكتب لنا كتاباً .. قل لمن تخلف هذا الملك ؟

قال الإسكندر :

ـــ للأقوى !

غادر الإسكندر مدينته بعد أن وضع حجر أساسها ، ولم يعد إليها . ثم استقبلت جثمانه ، وأودعته قبرها الذى لم

يعرف أحد موضعه حتى الآن . ظل فى باله ما لاحظه فى قبر كورش بن قمبيز من إهمال . تحطم ، وسرق بابه .

هل دفن الإسكندر فى المدينة التى تحمل اسمه ، أو فى مدينة أخرى داخل إمبراطوريته الواسعة ؟

أوصى الإسكندر ــ لما أحس بدنو الأجل ــ أن يحنط جسده ، ويدفن فى معبد آمون بسيوة . فى المعبد الذى توَّجه فيه كهنة آمون . وضع الجثمان ــ محنطاً ــ فى تابوت ذهبى ، على عربة محملة بالذهب والمجوهرات ، يجرها ٦٤ جواداً . أصر بطليموس حاكم مصر على أن يدخل الجثمان مصر ، ويدفن فيها ..

أقدّر أنه أودع فى الوصية التى رافقت جثمانه اسم الخلف ، والطلسم الذى أنبأه به العراف المصرى ، ليحمى المدينة التى أنشأها فوق راكوتيس وفاروس من خطر الزوال . كان يشغله مصير المدينة التى أوصى بأن يدفن فيها بعد موته . ما أخبره به العرافون والمنجمون أن الغرق هو مصير الإسكندرية ، ما لم يعمل ناس الزمان بما فى الطلسم الذى أمضوا السنوات فى إعداده لدرء الخطر ..

جاء فى رواية أن بطليموس الأول دفن الجثمان فى ممفيس ، ثم نقله بطليموس الثانى إلى الإسكندرية .

يروى المؤرخ برنباس أن جثمان الإسكندر ظل فى معبد الإله بتاح حتب أربعين سنة . التابوت ــ كما وصفه ديودوروس الصقلى ــ صنع من المرمر الذهبى على شكل سرير . نقله بطليموس الثانى إلى الإسكندرية ، بعد أن تم بناؤها فى ٢٤٦ ق . م .

فى رواية برنباس أن الدفن جرى ــ فى احتفال كبير ــ فى معبد إيزيس الجنائزى بالحى الإمبراطورى . تأكدت الرواية فى روايات أخرى لمؤرخين زاروا قبر الإسكندر . قاعاته كلها تحت الأرض ، يعلوها هيكل المعبد . راعهم فخامة المعبد ، وقاعة الصلاة ، وقاعة البكاء ، والدهاليز المحيطة بالمقبرة ، والتابوت على شكل السرير ..

لم يجلس على عرش مصر ، ولا دخل المدينة التى أمر بإنشائها . بطليموس الأول الذى اختاره الإسكندر ليحل مكانه فى حكم مصر . نفذ وصيّة سلفه العظيم . حنّط جثمانه ، وحمله من فارس إلى ممفيس . رفض الكاهن الأكبر أن يتسلم الجثمان ، وقال :

ــ لا تجعلوه يستقر هنا .. ادفنوه فى المدينة التى شيدت بأمره هناك .. فى راكوتيس .. إن جسده إذا حل بمدينة دخلتها القلاقل والحروب والمعارك ..

مضى الجنود بالجثمان إلى النيل فى موكب هائل ، التف بالذهب فى تابوت زجاجى [استبدل ــ فى عهود البطالمة ــ تابوت الزجاج بالتابوت الذهبى] . كتب التاريخ روت عن الجنازة الهائلة : عربة باذخة يجرها ٦٤ جواداً اكتست بالذهب ، انتهت إلى المقبرة التى لم تشر الكتابات إلى موضعها ، وإن أجمع مؤرخو عصر البطالسة ومؤرخو الرومان على أن الإسكندر دفن فى الإسكندرية ، فى قلب المدينة التى تحمل اسمه ، عند تقاطع طرقها الرئيسة . كان وجود الجثمان فى سيوة سيعرضه للخطر . لن يقف على حراسته جنود . يترك للأهالى المشغولين بهمومهم . ضريح الإسكندر هو السيما Sema تحريف من كلمة Soma الإغريقية ، ومعناها الجسد .

أخذ الإسكندر معه إلى قبره الكثير من الأسرار التى كان يعرفها القلة من أخلص قواده وأصدقائه ، أولا يعرفها أحد . الطلسم هو أحد تلك الأسرار التى غابت عن كتب

المؤرخين ، وإن وجدت فى نقوش أعمدة تنتمى إلى العصر البطلمى .

ظل القبر ــ منذ عهد بطليموس ــ أهم معالم الإسكندرية . ثم اختفى فى القرن الرابع الميلادى . سأل يوحنا فم الذهب فى القرن الرابع : أين يوجد قبر الإسكندر ؟. يعنى أن موضع القبر ــ آنذاك ــ لم يكن معروفاً .

أسير فى شوارع الإسكندرية ، فى ذهنى أصداء المعانى التى أحيا بها ، ولها . قبر الإسكندر ، وخطر الابتلاع ، والكنز ، والطلسم ، والمدينة التى اتسعت ــ ولا تزال ــ بوصل قرية راقودة وجزيرة فاروس . الذاكرة الضعيفة ــ مشكلة أعانيها منذ الطفولة ــ تجعلنى فى حاجة دائمة إلى الأوراق والكتب والتقارير والخرائط والمذكرات . أقرأ كل ما يصادفنى ، كتابات ماسبيرو وسليم حسن وفنديه ودريتون وإيفيس وأرمان وغيرهم . أعلق فى الهوامش . ربما نقلت الفقرات التى أجد أنى سأعود إلى قراءتها .

لا أذكر القائل ــ بعد وفاة الإسكندر ــ : كان الملك يعظنا فى حياته ، وهو اليوم أوعظ منه حياً . ما أذكره أن القول أورده الأصفهانى فى أغانيه .

الفصل السادس

تخلقت أسطورة الإسكندر ـــ شيئاً فشيئاً ـــ فى غلالات الدين ، والأسطورة ، والحكايات الشعبية ..

قيل إن الغربان هى التى قادت الإسكندر إلى معبد آمون . وثمة حكايات عن السد الذى بناه الإسكندر ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج ، وقيل إن الإسكندر خلّف من بين كنوزه مرآة تعكس العالم كله : بحاره وأنهاره ومدنه وقراه وجباله وصحاريه ، كأنها البلورة السحرية التى تحدثت عنها الحكايات العربية .

حين وصل إلى جزيرة الأمازونة ، أدهشه أن الإقامة فيها مقصورة على النساء ، فلا يدخلها الرجال إلا مرة فى العام ، وقيل إنهن لجأن إلى اللقاح من الريح ، وقيل إن مجرد تأمل خيالهن فى الينبوع يحقق فى أحشائهن معجزة الأمومة دون اتصال جنسى .

ذكر أنه بعد أن انتهى الإسكندر من فتح البلدان ، وتطهير الأرض ، حدثته نفسه لكشف ما فى قاع البحر من غرائب المخلوقات . قيل إنه غاص إلى قاع البحر فى قفص شفاف من جلود الحمير . ظل فى الأعماق ستة وتسعين يوماً بلياليها . أتته خلالها حيوانات البحر طائعة ، مختارة . رفعت له فروض الطاعة والولاء . وكان من بين الوحوش ما استغرق مروره من أمام قفص الإسكندر أربعة أيام بلياليها ، هى المدة التى انقضت بين رؤية الإسكندر لرأس الوحش وذيله ..

لم أعد أدرى الفرق بين الحقيقة والخيال . لم أعد أمتلك ما أطمئن به إلى نتائج التنقيب والحفريات ، ولا إن كانت الآثار التى يجدها العمال حقيقة ، أو زائفة ، ولا إن كانت تنتمى إلى عصر بالتحديد من تاريخ الإسكندرية منذ راقودة وفاروس ..

مهمتى أن أفرق بين الواقعة التاريخية والأسطورة ، بين الحدث الحقيقى والحدث المتخيل . حكايات الإسكندر مبثوثة فى كتب التاريخ والآثار ، وفى كتب التراث الشعبى ، والآداب ، لا تكاد تخلو منها لغة فى العالم ..

* * *

لما مات الإسكندر فى بابيلون عام ٣٢٣ ق . م قسّمت إمبراطوريته الواسعة بين قوّاده ، لكن الحضارة الهلنستية ــ نابعة من الحضارة الهيلينية ، المنسوبة إلى هيلين ابنة زيوس ، رب أرباب الإغريق ، المنتشرة على يد الإسكندر ــ كانت قد انتقلت من بلاد الإغريق إلى الإسكندرية وإنطاكية وترالس وبرغام وغيرها من مدن المنطقة العربية . وصل البطالمة إلى الحكم . صارت الإسكندرية مركزاً للحضارة الهيلينية ، واشتهرت بها شخصيات إغريقية كثيرة ، فضلاً عن تحولها إلى أهم مدينة فى العالم . استقر طابع الفن الإغريقى فى الأرض العربية رغم صراع أصوله المادية ، والأصول الروحية للفن العربى ..

فى عهد بطليموس الأول ، أسست مكتبة الإسكندرية . عملت على الجمع والتحقيق والحفظ ، وأجراء دراسات فى الطب والفلك والهندسة وغيرها . صارت المكتبة ــ فى مدى قصير ــ أشد اتساعاً ، وأكثر شهرة . ضمت ٩٠ ألف مخطوطة أصلية ، و٤٠٠ ألف لفة من الصور المنسوخة ، إلى جانب ٤٢٨٠٠ فى الملحق ، أو المكتبة الابنة فى معبد

السرابيوم ، وأيضاً مخطوطات إسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس . ثم فرع المكتبة ــ أنشأه بطليموس الرابع فيلا باتور ــ لدراسة كتابات هوميروس . حققت الأبحاث والدراسات نتائج مهمة ــ فى كل المجالات ــ على مدى خمسمائة عام .

غاب موقع المكتبة والمتحف . ذابا فى إسكندرية الإسكندر المطمورة تحت مياه البحر ، وتحت الرمال . موضعهما ــ فى اجتهادات علماء الآثار ــ فى مستطيل من الأرض . يحده ــ شمالاً ــ شارع سعد زغلول وجنوباً ، شارع سيدى المتولى ، وشرقاً ، شارع النبى دانيال ، وغرباً ، شارع جوهر القائد . كان الجزء الشمالى من المكتبة يطل على مستودعات الجمرك ، وهو ما يفسر احتراق المكتبة ، لما أشعل قيصر النيران فى سفن الأسطول المصرى ، امتدت منها إلى المستودعات .

حين دخل العرب مصر فى ٦٤١ ميلادية ، لم تكن المكتبة موجودة . كانت ــ كما قلت لك ــ قد أحرقت فى عام ٤٨ قبل الميلاد ، زمن الإمبراطور يوليوس قيصر . ما تبقى

من المكتبة خلا من المخطوطات والمجلدات ، لم يكن سوى أعداد قليلة ، احتفظت بها الكنائس والأديرة .

في عهد بطليموس الثاني ، شيدت منارة الإسكندرية . بدأ بناؤها في أيام بطليموس الأول (٢٨٠ ق . م .) في الجزء الشرقي من جزيرة فاروس . صارت إحدى عجائب العالم الثلاث ، ثم السبع . في عام ٧٠٠ بعد الميلاد سقط مصباحها . رممها ابن طولون في ٨٨٠ . في ١١٠٠ حدث زلزال مدمّر ، لم يبق إلاّ على الطابق الأول منها . وفي ١٤٨٠ أقام السلطان قايتباي على أنقاضها قلعة ليحمي الإسكندرية من تهديد الأتراك بغزو مصر . جدد محمد علي بناء الحصن . ثم تهاوت بقايا المنارة تحت قنابل الأسطول البريطاني في أثناء ضرب الإسكندرية ، في ١١ يوليو ١٨٨٢ ..

في بداية القرن السادس الميلادي ، احتل الفرس مدينة الإسكندرية . بعد ذلك بأعوام قليلة ، احتلها العرب ، ثم انتقلت عاصمة البلاد إلى القاهرة ..

أنا أحب التاريخ . أحبه لأني أحبه ، وليس لأنه عملي ، وإن كنت لا أحفظ الأرقام ..

* * *

تجمع كل الروايات على أن الإسكندر دفن فى مصر .. أين ؟

ظل جثمان الإسكندر فى بابل سنتين ، استغرقهما صنع التابوت الحجرى وعربة الموكب ، فى انتقال الجثمان إلى مصر . كان بطليموس الأول قد أمر بأن يتفق الموكب مع سيادة الإسكندر على العالم . قيل إن بطليموس الثانى أنهى بناء منارة الإسكندرية القديمة ، فى الموضع نفسه الذى دفن فيه الإسكندر ، كى لا يفطن أحد إلى موضع القبر ، وليحميه من مياه البحر . تبلورت أمنياتى ، وما أطمح إليه ، فى العثور على المقبرة ، الكنز ، السر ، المعنى الذى قد يبدّل حقائق كثيرة . يمنع خطر تعاظم أمواج البحر ، وابتلاع المدينة . قيل إن كهنة معبد زيوس آمون بسيوة ، أرسلوا مجموعة من البرديات المتصلة بعلوم السحر والتنجيم ، وأسرار العرافات . ملئ بها تابوت الإسكندر . أخفى السحر والأسرار والتعاويذ قبر الإسكندر ، فظل فى حماية آبائه الآلهة . وقيل إن القبر السر يقف أمامه وحش ، أو تنين ،

خضع للسحر فلا يعود إلى الحياة إلا حين تقترب الأقدام من موضع القبر ..

القبر الذى أبحث عنه ــ فى وصف المؤرخين ــ تفضى إليه درجات من الطوب . فى أسفلها فناء مربع الشكل ، ثم طرقة طويلة ، تنتهى إلى الضريح ، تحت سطح الأرض ..

كتابات كثيرة عما كان عليه الإسكندر من عظمة وقوة ، والتراب الذى آل إليه جسده . قبر الإسكندر تحت مدينته ، به ثروات لا حصر لها ، بداخله الوثيقة التى تحمل وصيته للناس من بعده . هذه الوثيقة الوصية هى ما يهمنى ، يهمنى الحديث عن الطلسم الذى يحمى الإسكندرية من مياه البحر . الطلسم لا يفض سر المقبرة ، وإنما يفض سر حياة الإسكندرية . نجاتها من الغرق واستمرارها . ذلك ما حرص الإسكندر على أن يحتفظ به للمدينة التى أطلق اسمه عليها ..

الإسكندرية أول من وضع لها الطلسمات فى مدن مصر . يقول كتاب " مختصر البلدان " إن الإسكندرية كانت بيضاء ، تضىء بالليل والنهار . إذا غربت الشمس ، لزم الناس بيوتهم . من غادر بيته ، لا يأمن على نفسه من الفقد .

عملت لذلك الطلسمات . منها ما أفتش عنه فى قبر الإسكندر ..

أعرف أن محاولات المغامرين تعددت للعثور على قبر الإسكندر . يشغلهم المجد والثراء ولذة الاكتشاف . ما يقرب من المائة والخمسين محاولة ، أخفقت جميعها فى الوصول إلى قبر الإسكندر ، لكن الاجتهادات تهب الأمل فى العثور على ما يبدو مستحيلاً . ما يشغلنى هو الطلسم الذى يحفظ على الإسكندرية حياتها .

أنا مثل يوليوس قيصر . ما شغله يشغلنى ، وما أهمله لا أسعى إليه . لم يلتفت إلى ثراء المقبرة من ذهب ومجوهرات وزخارف رائعة . كان همه أن يجد القبو الذى يفضى إلى مقبرة الإسكندر ، ربما للبحث عن الطلسم الذى يحمى المدينة من الغرق ..

هذا ما يشغلنى .

الفصل السابع

عدت متعباً من الوقفة معظم النهار ، أرقب العمال وهم يحفرون بالقرب من قلعة قايتباى . انعكست ضربات الفأس رنيناً . صحت : توقف . استبدل العمال بالفأس إزميلاً ، يكشط ما فوق الموضع بضربات هادئة . تسلل الضوء من الثقب إلى حفرة ، اتسعت ــ بضربات الإزميل ــ إلى تقاطعات من الأنفاق والسراديب والحفر ، تناثرت فيها أوانى فخارية وتماثيل صغيرة . واصلوا الحفر ، فخرجوا برءوس وأجساد ناقصة متباينة الأحجام والارتفاعات ، من الجرانيت والكوارتزيت والرخام الأبيض والبازلت الأسود .

أدركت أنه قد سبقتنا إلى الموضع معاول أخرى ..

ما تحت قدمى ليس مجــرد أرض ، ولا رمــال ، ولا قطع من الحجارة والحصى . أثق أنى لو اكتفيــت بخــدش الأرض ، فسأجد ما ينتسب إلى مدن مدفونــة ، حضــارات قديمة ، طبقة من طوابق الإسكندرية فى توالى عصــورها . أحاول ــ فى توالى عمليات التنقيب ــ أن أحصل على إشارة

تفتح لى باباً ، يعيد للإسكندرية مـــا يحفـــظ عليهـــا أمنهـــا وطمأنينتها ..

رأيتها فى السرير . متعبة من ثلاث عمليات ولادة أجرتها فى أوقات متقاربة ..

باعدت بين ساقيها ، فأدركت أنها لن تقاوم ملامستى لها كما فعلت فى مرات سابقة . لم يشغلنى أنها ضايقتنى من قبل . هى الآن فى حضنى . يمتعنى دفء جسدها ، وتلامس أنفاسنا . كان جسدها ـــ وحده ـــ هو ما تستطيع أن تبذله لى . لا محاولة للفهم ، ولا للمشاركة ، أو التعاطف ..

فاجأتنى نوبة من العطس .

أظهرت نجلاء التأفف :

ـــ هذه حساسية من طول قراءتك للأوراق القديمة ..

وملأ الغضب صوتها :

ـــ كلها تراب .. وأنت تستنشق !

احتد الشجار بيننا . تركت لها حجرة النوم ، وأمضيت الليل فى حجرة المكتب . لا أقرأ ، ولا أكتب ، ولا أدير الترانزستور الصغير . حتى التليفزيون ظل مغلقاً . أسندت رأسى على راحة يدى . أتأمل ـــ فى السقف ـــ تكوينات

الضوء الخافت والظلال . ظللت صاحياً إلى قرب الصباح ، ثم رحت فى النوم ..

قال أبوها :

ــ لا مشكلة بلا أصل .. ما أصل مشكلتكما ؟

قلت :

ــ لو أنى أعرف فسأحاول حلها ..

رمقته بنظرة ساخطة :

ــ أنا لا أعرف شيئاً .. لا أعرف ما يرضيها ؟ وما يضايقها ؟..

وهو يشيح بيده :

ــ أنت تخلق المشكلات ، ثم تدعى البراءة !

وعلت ملامحه عدوانية قاسية :

ــ سبقك فى البحث عشرات .. لماذا تتصور نفسك أكثر ذكاء ؟!

حل صمت ثقيل . لم أجد الكلمات التى أرد بها . رفضت أن أجتر الكلمات التى لن تعنى شيئاً .

* * *

أصعد إلى سطح البيت . تطل واجهته على شارع محمد كريم . من الخلف شارع حسن باشا عاصم . قهوة فاروق ــ أسفل البيت ــ تضج بالنداءات والصيحات والأغنيات وضربات النرد .

أتأمل شبه الجزيرة ، فى شبه جزيرة الإسكندرية .

ألفت المشهد ، وأحببته . المينا الشرقية متصلة بخليج الأنفوشى ، فالمينا الغربية . اختلاف القسمات والملامح . اللسان الحجرى الفاصل بين السلسلة وقلعة قايتباى فى المينا الشرقية . يمتد من أمامه نصف دائرة الأمواج ، تتناثر فيها السفن الصغيرة . خليج الأنفوشى يمتد بلا أفق . وثمة بلانسات تمضى إلى خارج البوغاز . الحياة تشغى فى المينا الغربية . البواخر الضخمة والأرصفة والمخازن والحاويات والناس يتحركون بقعاً صغيرة . فى الطرف الأيسر للناحية المقابلة عشرات القوارب الصغيرة : لنشات وفلوكات ولواتس وجنادل راسية ــ فى فوضى ــ داخل مرسى المينا الشرقية ..

أحاول ــ فعلت ذلك مرات كثيرة ــ تخمين الموقع الذى كانت عليه راكوتيس . هل جرفته مياه البحر ؟ أو أنه

الزاوية بين الأنفوشى والمينا الشرقية ، الموقع الذى أقيمت فوقه نقطة الأنفوشى ، والمسجد الصغير ، ومرسى القوارب ، ومناشر غزل الصيد ، ومتحف الأحياء المائية ، وقلعة قايتباى . لعله فى امتداد المساحة إلى ما بعد ميدان أبو العباس . فى موضع بالذات ، فى هذه المساحة التى أتأملها ، أشار الإسكندر وقال : هنا ، أريد أن أبنى عاصمة ملكى ..

عدت إلى خرائط محمود باشا الفلكى وجاستين جون واى والأمير عمر طوسون . لوحة متكاملة التكوينات لما تضمه من آثار غارقة ، بعضها ينتمى إلى العصر الفرعونى ، وبعضها ينتمى إلى عصر البطالسة . لا إشارة إلى قبر الإسكندر . خمسة آلاف قطعة أثرية ، انتشلت من تحت الميناء عند قلعة قايتباى ، فى عمق يتراوح بين ستة إلى سبعة أمتار تحت سطح البحر ، تخلو جميعها من سيرة الإسكندر ..

لعل التمويه فعل فعلته . ربما ــ فى الموضع نفسه ــ دفن الإسكندر ..

الفصل الثامن

غابت سيرة قبر الإسكندر منذ القرن الثالث بعد الميلاد . لم يشر إليه مؤرخو العصر ، ولا العصور التالية : أين هو ؟ وماذا جرى له ؟ ولماذا اختفى ؟..

لم تعد مقبرة الإسكندر قائمة ــ فى روايات ــ فى القرن الرابع الميلادى ، وإن تحدث الرحالة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عن زياراتهم للقبر . أقيم فوق أطلال القبر كنيسة القديس مرقص ، المطلة على شارع النبى دانيال . زار مقبرته أباطرة رومان وشعراء ومؤرخون وساسة وقادة . عندما دخل أكتافيوس الإسكندرية ، زار قبر الإسكندر ، أدى الشعائر أمام الضريح ، السوما . ركع أمامه ، ووضع فوق التابوت الزجاجى تاجاً من الذهب ، وإكليلاً من الزهور . زار ابن سويرس كاراكيلا Caracalla الإسكندرية ، حج إلى قبر الإسكندر فى السوما ، وضع فوق التابوت ــ كتقدمة ــ معطفه القرمزى ، وخواتمه ، وحزامه المرصع بالجواهر . أمر فيلادلف بتشييد مقبرة لوالديه

بطليموس وبرنيس فى موضع قريب من الحائط الشرقى لمقبرة الإسكندر . وشيد فيلوباتور ضريحاً هائلاً جمع فيه رفات كل آبائه وأجداده ، وألحقه بمقبرة جده الإسكندر . ويروى أن الإمبراطور أوغسطس نزل بأسطوله عند شاطئ الإسكندرية . توجه ــ من فوره ــ إلى قبر الإسكندر ، ومعه قادة جيشه . صلى أمام القبر ، ثم خلع رداءه وقلادته ومجوهراته ، ووضعها فوق الضريح ، ونثر الزهور فوقه ، وقال : هذا وفاء لنذر . دلالة أن الإسكندرية هى المدينة التى دفن فيها الإسكندر . حتى مقبرة كليوباترة وأنطونيوس شيدت بالقرب من الجدار الشرقى لمعبد إيزيس بلوزيا . ووضع الإمبراطور سبتيموس سفيروس ما حمله من المعابد ، من البرديات المقدسة ، داخل التابوت الزجاجى . وتقلد كاليجولا درع الإسكندر ..

زرت أخميم مرات كثيرة .

بدت لى مدينة من طابقين . ما تحت الأرض بقايا عصر الفراعنة ، وما فوقها أخميم الحالية . البيوت والساحات والأرض المنحدرة والجوامع والكنائس والمقابر وأنوال الحرير . الإسكندرية ــ فى توالى الاكتشافات

والتوقعات ــ مدينة من طابقين . ما تحت الأرض مدينة البطالمة ، وما فوقها مدينة ناسها الحاليين . إسكندرية التحتية ذات شوارع متقاطعة وبواكى ، على جانبيها أعمدة الرخام ، وتمتلئ بالقصور الملكية والبنايات والمعابد ودور العلم ومراصد ملاحظة النجوم والملاعب والساحات وميادين السباق والأسواق وأرصفة الموانى والمنشئات المتصلة بالبحر .

اختفت المدينة ــ والمقبرة بالتالى ــ بفعل الزلازل أو التدمير فى القرن الرابع . تحديد الموعد لأن القديس حنا فم الذهب سأل فى ذلك القرن عن موضع مقبرة الإسكندر ، فهى إذن لم تكن موجودة . قوض الزلزال ــ كذلك ــ فنار الإسكندرية . انشغل العلماء ــ فى العصور التالية ــ بالعثور على بقاياه . كان ثلاثة مؤرخين قد حددوا موضع المقبرة : سترابون فى القرن الأول ، زنوبياس فى القرن الثانى ، آخيلوس تاتيوس فى القرن الثالث . كل مؤرخ من الثلاثة حدد المقبرة فى مكان . المراجعة المتمهلة للخرائط تشير إلى قرب ــ أو داخل ــ مقبرة اللاتين ، باعتباره الموضع المحتمل فى تقدير المؤرخين الثلاثة . المقبرة الوحيدة فى

مصر من الطراز المقدونى . ثمة تقديرات أخرى أنها جزء من المدافن الملكية فى عهود البطالمة ، فالاحتمال قائم بالعثور على وجود قبر الإسكندر بها . روايات قديمة ، كثيرة ، تؤكد أن المقبرة موضعها فى الحى الملكى . يبدأ من رأس لوخياس ــ لسان السلسلة الحالى ــ ويمتد إلى حى المنشية غرباً ، وحدود طريق الحرية ، حتى باب شرق جنوباً .

من الصعب تحديد أين يقع الحى فى هذه المساحة ؟ وأين تقع المقبرة ؟

ثمة اجتهادات أن موقع القبر بالقرب من الكنيسة المرقسية ، فى تقاطع الطريق الرئيسى الشرقى ، والطريق المتعامد عليه ، المفضى إلى البحر ..

* * *

المقبرة ــ كما قال زميلى الدكتور نعمان نجاتى بالقرب من المقبرة الألابستر بجبانة اللاتين ، المقبرة المرمرية التى وصلت إليها التنقيبات مصادفة . هى المقبرة الوحيدة فى مصر ذات الطراز المقدونى ، جزء من المقبرة الملكية فى عصور البطالمة . تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد ،

عصر الإسكندر ، أو عصر يليه بفترة قصيرة . مقابر الشاطبى شمال كلية سان مارك من ناحية البحر ، بين الترام والبحر . مبنية على هيئة البيوت القديمة ، مدخل ودهليز وحجرتين . هى أولى المقابر بالإسكندرية ، وإن بنيت خارج أسوارها ..

الشواهد ــ كما يرى الدكتور نجاتى ــ كثيرة فى وجود مقبرة الإسكندر فى ذلك المكان . تماثيل الملائكة المتناثرة بين القبور وفوقها ، ورائحة البحر تترامى من وراء السور العالى ، وشمس نوفمبر ترسل أشعة دافئة ..

قال :

ــ أظن أن مقابر اللاتين تعود إلى مقبرة الشاطبى الصخرية .

قلت :

ــ هل يوجد احتمال بوجود قبر الإسكندر فى مقابر اللاتين ؟

ــ كل الاحتمالات واردة ..

وخالط صوته نبرة واثقة :

ــ قياسات المسح الجيوفيزيقى أكدت وجود مواد من الرخام الألبستر أو الحديد على عمق ثمانية أمتار .

ثم وهو يمر براحته فى ذقنه :

ــ كما تعرف .. الإسكندرية مدينتان ، المدينة الأولى تحت الأرض !

وأسلم نفسه إلى شرود :

ــ حتى لو ظهرت مقبرة الإسكندر فى هذا المكان ، فلا يعنى ذلك بالضرورة وجود مومياء الإسكندر .. للإسكندر أربعة مقابر فى منف وسيوة والإسكندرية وبابل ..

أعدت التردد على مقابر سوق الورديان وكوم الشقافة والقبارى والأنفوشى وسيدى جابر ومصطفى كامل والمكس . مقابر إغريقية التصميم والعمارة والزخرفة ..

* * *

لم يعد نزولى للطريق للذهاب إلى مكتبى وحـــده ، ولا إلى مواقع التنقيبات . أحرص ، فأتغيب عن البيت . أمضـــى الوقت فى تأمل الأماكن ، والسير بلا هدف . تتفرع أمـــامى الميادين والشوارع . تختلط المعالم والـــرؤى والتوقعـــات . أصعد إلى الدور الثانى من ترام الرمل . أجلس فى المقعـــد

الأمامى . تبين الشوارع باتســاعها . البيــوت والــدكاكين والمقاهى وقضبان الترام فى استقامتها وانحناءاتهــا . علــى جانبيها الخضرة ونبات عباد الشمس بصــفرته الوهاجــة . أستقل ترام الخط الدائرى ، والأوتوبيس من بدايته فى ميدان المنشية إلى نهاية الخط ، وأعود . لا يشغلنى المسار الــذى يمضى فيه ، ولا المحطة النهائية . أظل فى جلســتى حتــى يعود إلى بداية الخط . أمضــى فــى الشــوارع الضــيقة ، المنحدرة ، ناحية البحر .

أتمشى على شاطئ الكورنيش متأملاً نصف الدائرة من قلعة قايتباى إلى مبانى السلسلة وحاجز الأمواج فــى الأفــق القريب ، والمراكب المتناثرة . الشرفات الحجرية ، تعلوهــا المقرنصات ، وتحتها دعامات التماثيل الرخامية . الشــبابيك الخشبية العالية ذات الضلف الأربع المفتوحة على امتدادها ، أو المواربة . ربما اقتصرت على ضلفة واحدة مفتوحة ، أو ضلفتين . أطيل الوقوف فى منطقة السلســلة أمــام موضــع مكتبة الإسكندرية القديمة . أحصى الشواطئ من الشــاطبى إلى كامب شيزار ، الإبراهيمية ، ســبورتنج ، كليوبــاترة ، رشدى ، ستانلى ، سان ستيفانو ، ثروت ، لوران ، السراية ،

سيدى بشر ، ميامى ، العصافرة ، المندرة ، المنتزة ، إلـــى أبو قير . اكتشفت تماثيل للإسكندر فى أبى قير ، لكن الأدلة تغيب حول دفن الإسكندر فى الضـــاحية . صـــف الكبـــائن الخشبية المتلاصقة يحجب رؤيتى للبحـــر والشـــاطئ ، وإن تسرب البحر إلى داخلى . أشم اختلاط رائحة اليود والملـــح والأعشاب والطحالب . ينفذ فى مسامى ، فأشعر بالنشوة ..

التقيت بعلماء فى الجغرافيا والطبوغرافيا والآثار ، وبرسامين وغطاسين ومصورين . تعرفت إلى ضباط فى البحرية وعلماء لغة ومهندسين وموظفين فى المحافظة وأشخاص تعاملت معهم دون أن أعرف صفتهم . أسأل عن مواقع الشوارع والميادين ومواسير المياه والصرف الصحى والساحات الخالية والمقابر القديمة والحالية ..

نادى سبورتنج ..

هذه المساحة الهائلة من الخضرة والنخيل والأشجار ، كانت ــ زمن الإسكندرية القديمة ــ مكاناً لسباق العربات . قبل ألفى عام تحولت إلى مكان لسباق الخيل ..

أجلس فى بورصة الكلح والصعايدة ، ما بين الإبراهيمية وكامب شيزار . الرواد من لابسى الجلابيب

والطواقى والبدل والعمائم والقفاطين . المقاعد من الليف المجدول ، والطاولات معدنية ذات ثلاثة أرجل ، ونداءات الجرسون تختلط بصيحات الرواد وضحكاتهم وشتائمهم ، وضربات النرد والكوتشينة ، والأولاد يلعبون الكرة المصنوعة من قطع القماش ، وهبات الهواء محملة برائحة البحر ، والسحب المتكاثفة فى السماء تنذر بقرب هطول المطر .

سميت قهوة العربجية . فضل الحوذية الجلوس عليها ، ربما لأن العربات الكارو تقف بمحاذاة شريط الترام .

رفض العمال أن يعملوا معى . حملوا معداتهم بعيداً عن الموقع الذى اخترته للحفر فى الميدان المواجه لجامع سيدى على تمراز . حذّرهم إمام الجامع من الحرام ، وما قد يواجهونه من عقاب إلهى . قال إن للميت حرمة ، حتى لو لم يكن مسلماً ..

رئيس العمال عبد الرحيم العسيرى ، فى حوالى السادسة والخمسين . قامة طويلة ، أقرب إلى الامتلاء . خط الشيب فوديه ، وانتشر الصلع فى مقدمة رأسه . حاجباه الكثيفان يغطيان على بقية تفاصيل وجهه . همنى التعرف

على أفكاره ، ما يشغله ، وما يتطلع إليه . تسللت إلى نفسى مخاوف ، لم أستطع مغالبتها .

قلت :

ـــ لماذا انقطعتم عن العمل ..

وداريت انفعالى فى لهجة هادئة :

ـــ دعك من مسألة الحرام والحلال ..

فاجأنى عبد الرحيم بقوله :

ـــ كم سنأخذ من الكنز ؟

ـــ أى كنز ؟

ـــ الكنز الذى تبحث عنه ..

ثم وهو يدق على الطاولة بقبضة يده :

ـــ الكنز معناه الذهب أو النقود .. ماذا نأخذ مما سنصل إليه ؟

ـــ هذه آثار الدولة .. لا أنا ولا أنت ولا أى أحد من حقه أن يحصل على قطعة حجر ..

ـــ لا شأن لى بالحجر .. أحدثك عن النقود .. الذهب ..

منذ بدأت عمليات الحفر لإنشاء نفق الشهيد عبد المنعم رياض . لم أعد أتردد على البيت إلا لالتقاط لقمة ، أو الاستسلام لإغفاءة قصيرة . أتجه إلى موقع الحفر . أمنى النفس بالعثور على سور الإسكندرية القديم . هللت مع من رأوا بقايا السور على عمق ستة أمتار ونصف المتر . امتداد مركزه ساعة الزهور ، قبالة قسم باب شرقى . يتجه من الغرب إلى الشرق حتى أرض النادى الأولمبى ، ومن ناحية الجنوب إلى البرج الشرقى فى الاستاد ، ويمتد السور إلى البرج الغربى فى حديقة الشلالات ، ينقسم إلى جزءين ، رومانى خارجى ، وإسلامى داخلى ، هو امتزاج بين العمارتين الرومانية والإسلامية .

ليس أمامى إلا أن أفكر بكنزى . أسقط الشك والخوف وابتزاز رئيس العمال . لا يشغلنى إلا الكنز ، أعثر عليه ، أعثر على الطلسم . أقرأ كلماته ، فيزول الخطر عن الإسكندرية . مجرد أن يزول الخطر يعنى حقائق ، ربما تغيب عنى ، وعن نجلاء .

هذا الطلسم يحرس الإسكندرية من كل شر . من أخطار الطبيعة ، وأفعال البشر . ترفض العلاقة بين

الإسكندرية والبحر ، تصور أن الصداقة بينها تتحول إلى عداء . ساعداه تحيطان بها منذ آلاف السنين . يعرف أسرارها وما تعانيه ..

كيف يقدم على إغراقها ؟!

الفصل التاســـع

أخذتنى دوامة الصخب فى بهو سراى الحقانية . الفتاة المعصوبة العينين تحمل كفتى الميزان . الأجساد المتصادمة والنداءات وأرواب المحامين والدوسيهات المستندة إلى الصدور والأعمدة الرخامية الهائلة والمقرنصات فى امتداد الكورنيش العلوى ..

تبينت ــ وأنا أنزل الدرجات الرخامية ــ أن الحقيبـــة يسهل حملها . قررت أن أخلى السبيل لقدمى ، وأن أتأمـــل . أحرص فلا أستقل سيارتى . أمشى ، أو أركب المواصـــلات العامة . أتحير بين الرغبة فى المشـــاهدة والتأمـــل ، وبـــين القيادة ..

رنوت إلى تمثال محمد على ، على قاعدته الرخامية . الجسد العملاق يمتطى جواداً يهم بالسير . السيف يتدلى إلى جوار الثوب الفضفاض ، والعمامة الكبيـــرة تعلـــو رأســـه ، والنظرة الثابتة مشرعة إلى الأمام . لا أتصور أنه قد جـــرى غسله ، منذ أشرف الفرنسى جاكمار Jacquemart [١٨٦٨

] على تصميمه وتنفيذه ، وإن أرجأت معارضة علماء الدين وضعه فى مكانه بضع سنوات .

لماذا رفعوا تمثال إسماعيل ، وأبقوا على تمثال جده ؟

لم يكن من المتصور وجود الميدان على هذه الصورة ، ولا وجود تمثالى محمد على وإسماعيل ، لولا الإسكندرية الحديثة التى أنشأها إسماعيل ، جزءاً من مصر الحديثة .

ملت إلى الممر الضيق ، على جانبيه فاترينات وطاولات زجاجية وبضائع مصفوفة ومعلقة ، ويصخب بالنداءات والصيحات والفصال . المنشية الصغيرة وكنيسة سانت كاترين والكنيسة اليونانية وشارع السبع بنات بأحجاره البازلتية السوداء ، الصغيرة ، على جانبيه مخازن الخيش والخشب والقطن والورش الصغيرة .

سرت إلى ما بعد ميناء البصل . أستعيد التسميات القديمة : كيبيتوس ، طريق كانوب ، بوابة القمر . أطل من كوبرى التاريخ على المراكب الواقفة فى ترعة المحمودية بالأشرعة المطوية ، والمراكبية فى تناثرهم داخل المراكب ، والمخازن والمستودعات وبلوطات الأخشاب ورصات الأجولة ، ورائحة الفحم تترامى من المستودعات المطلة على

البحر ، ورائحة ملوحة البحر . العربات تنقل بالات القطن من المكابس إلى البواخر ، والعربات المحملة بالأخشاب والحديد المسلح وفناطيس البترول والأسماك . في هذه الشوارع والميادين والصوامع والمستودعات والمخازن والأسواق ، كانت تقع قرية راقودة . هي الآن الورديان والقبارى وكوم الشقافة وغيرها من أحياء الإسكندرية .

صعدت إلى فنار كوم الناضورة القائم على ربوة . مرصد بحرى مهجور . حاذرت المياه الطينية ، اللزقة ، فى الشوارع المتفرعة من باب سدرة . عربات الكارو والحنطور وروث الحمير والخيل .

* * *

علت أجراس كنيسة سانت كاترين ، فتذكرت أن الساعة هى صباح الأحد ..

سرت إلى محطة ترام السبع بنات . خطواتى فوق مستطيلات البازلت الأسود ، الصغيرة

مدينة راكوتيس كانت تمتد إلى حى كوم الشقافة ، بالقرب من عامود السوارى ..

كوم الشقافة ؟ ..

قيل إن التسمية عربية : الكومة ، كومة الأوانى الفخارية المهشمة . وقيل انها تحريف للكلمة الإغريقية Come ومعناها القرية . مقابر من أربعة طوابق ، تمتد فى عمق الصخر الرملى ثلاثين متراً . ثلاثمائة مقبرة ، تصل إليها عن طريق نفق عمودى ، يبدأ من سطح الأرض . ممرات كثيرة ، على جانبيها كوات ، ما هو كبير يستقبل جثث الموتى ، وما هو صغير يستقبل أوان تحمل رماد الموتى . تداخل الفن الفرعونى والفن الرومانى . أقرب الاحتمالات أنها نحتت فى القرن الثانى الميلادى لأسرة من السراة ، لكنها تخلو من رفات مسيحية ، فهى قد تعود إلى ما قبل الميلاد ، إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وربما كان القبر داخلها يضم رفات الإسكندر ، ويضم الوصية الكنز ..

ربما اختفى القبر فى زلازل مدمرة تعرضت لها الإسكندرية فى القرن الحادى عشر . اختلطت أعاليها بأسافلها ، واندثرت معالم ، ومات الألوف من أهل المدينة ..

الإسكندرية مدينة من اثنتى عشر مدينة جديدة ، أنشأها الإسكندر فى حياته . إسكندريتى لها خرائطها التى رسمها المهندسون والفنانون ، بها ميناء وأسوار وبنايات وميادين

وشوارع . قرأت أن سترابو هو أول من رسم خريطة للإسكندرية ، بعد ثلاث سنوات من رحيل كليوباترة . زمان البطالمة !. تحفل الخريطة بالتفاصيل التى لم يسبقه إلى رسمها أحد . لم يُضَف إليها ، ولا حُذِف منها ، حتى رسم محمود الفلكى خريطته . الخريطتان فى حوزتى . أتأمل ، وأقارن . أتعرف على الملامح الغائبة ، والتى لم ترسم من قبل ..

المقبرة فى داخل المدينة البطلمية ، وليست المدينة العربية . اعتماد خرائط الفلكى [١٨٥٠] على التخطيط العربى للمدينة . المدينة البطلمية قوامها شارعان رئيسيان متقاطعان بزاوية قائمة ، وشوارع أخرى موازية لهما . ليس كانوب هو طريق الحرية كما يرى علماء الآثار ، لكن الشارع المقصود هو الأمير عبد المنعم ، فى امتداده إلى باب مينا البصل ، كما فى الكتابات اليونانية ..

هل شارع كانوب هو طريق الحرية الحالى ، أو أنه شارع الأمير عبد المنعم ، أو أنه شارع سيدى المتولى ؟..

نهاية الطريق بوابة إسلامية . أما نهاية الشارع فهى بوابة بطلمية ، باب مينا البصل اليونانى ..

شارع كانوب ــ كما تشير الخرائط ــ يقسم الطريق ما بين البحر والبحيرة إلى نصفين . شارع عبد المنعم هو الأقرب إلى هذه الصفة ..

أخترق مقابر العامود الملاصقة إلى الناحية المقابلة . تعانى التأثيرات القادمة من البحر . الملوحة والصدأ والرطوبة . حتى الأبواب الخشبية تآكلت ، أو انتزعت من أماكنها ، وانتزعت الأبواب الحديدية ، تساقط الطلاء ، وتساقطت الأحجار من الجدران فأحدثت ثقوباً تصل بين الأحواش وما خلف الجدران ، وانتشرت الثقوب السوداء ــ بتأثير ملوحة البحر ــ داخل الجدران الحجرية ، وتوسط نبات الصبار أعشاباً متيبسة . طمست حتى الأسماء المكتوبة على لوحات الرخام ..

هى مدينة للموتى منذ أيام البطالمة . المدينة القديمة فوقها مدينتان . ربما قبر الإسكندر فى قلب المدينة الأولى ..

الأرض الترابية الموصلة بين الشارع الضيق ، الطويل ، والأحواش . تنتهى إلى البياصة ــ البلاسا ، التسمية الإيطالية المحرفة ــ الميدان الصغير ، والبنايات الصغيرة ،

القصيرة ، والورش المتجاورة ، والمدرسة الإيطالى ، ومدرسة دون بوسكو الإيطالية ، الصناعية ..

* * *

تباطأت فى شوارع محرم بك : منشا ، الإسكندرانى ، محسن . عرفان . الرصافة . أمير البحر . الفيلا ذات الحديقة الجميلة فى شارع المأمون ، ذات سور حديدى تغطى معظمه أغصان الياسمين، وتتضوع رائحته . كان يقيم فيها لورانس داريل . قرأت رباعيته عن الإسكندرية ، لأنها عن الإسكندرية . قراءاتى فى الأدب على الهامش ، أو أنها للتسلية . بالقرب منها فيلا أخرى تضم حديقتها مجموعة نادرة من الأشجار ، عرفت أنه كان يقيم فيها الفنان التشكيلى محمد ناجى وشقيقته عفت ..

مضيت فى شارع محرم بك إلى نهايته .

ركبت الترام من محطة الرصافة ..

نزلت فى مواجهة ميدان أبو العباس ..

اخترقت شوارع بحرى الضيقة ، والحوارى ، والأزقة . الأسقف الواطئة ، والشرفات الخشبية ، والنوافذ الصغيرة ، ورائحة العطن تنبعث من الجدران المتآكلة . وثمة عربة يد ،

فوقها ترسة مقيدة على ظهرها ، والبائع ينادى على شرائها قبل الذبح ...

أحدس الأفق غير المرئى وراء البنايات ، تلتقى فيه اليابسة والبحر . أدرك أنه البحر . يمتد هناك . ينعكس فى صفحة المساء ، وفى اختلاط رائحة اليود والملح والطحالب والأعشاب . تباطأت أمام المقامات ذات الأكسية الخضراء ، والأضرحة ، والزوايا الصغيرة . ربما القبر فى موضع ما فى المنطقة ..

علا صوت عم عبد السلام من وراء الستارة البلاستيك :

ــ أهلاً يا وليد بك ..

جلست على الكرسى المقابل لمرآة تأثرت بالخدوش ، وتسلل السواد إلى حوافها . تمنيت أن يهبنى عم عبد السلام النصيحة . ماذا أفعل ، أو أقول ؟ كيف أمضى فى قبو ، لا نهاية لعتمته ؟

فى داخلى ما أريد أن أصارحه به ، أسأله فيه ، فيبذل لى الإجابة النصيحة . أستعيد ما كان بين أبى وبينه من أخذ ورد ومناقشات ..

يغيظنى أنها تسلم جسدها بآلية ، لا تأبه بما أفعله ، لا تبدى إقبالاً ولا ممانعة ولا رفضاً . أتاحت لى ملامسة ورود جسدها . تهبنى اللعبة التى أريدها لأنى أريدها . عيناها المفتوحتان ــ وهى فى حضنى ــ تزيدان من شعورى بالغضب . كأنى لا أعانق جسدها ، كأنها لا تملك هذا الجسد . أحاول أن ألتقط طرف الخيط فى الجفاء الذى بدأ يفرض نفسه على علاقتنا . فى يدها ، لا تريد أن تفلته . لا أدرى البواعث ولا البداية . ألاحظ شرودها ، وإعراضها عنى . هى تحيا معى بجسدها . لا روح ، لا مشاعر طيبة ..

لكننى ظللت صامتاً ..

لمح عم عبد السلام اتجاه نظرتى إلى شقة الطابق الثانى فى البناية المقابلة :

ــ لولا أنى أعرف الحكاية لتصورتك تعاكس الجيران ..

قلت :

ــ مضت ستة أشهر دون أن أفتحها ..

ــ زمن يا دكتور وليد ..

وضحك . فتح فمه على اتساعه ، فظهرت الفجوات التى خلفتها أضراسه المخلوعة ..

ــ الأيام الجميلة لا تعود ..

أعدت تأمل الطابق الأول بنظرة ثابتة .

النشع غطى الجدران بطبقة من الطحالب المخضرة . الباب يعلو ثلاث درجات من الأسمنت ، خشبى ، ضخم ، زين بمسامير من الحديد فى هيئة دوائر متداخلة . بقايا الشمس على الواجهة ، تلامس شبابيك وشرفة أسرة نجلاء ، والملابس تتطوح ــ بهبات الهواء ــ على مناشر الغسيل فى شرفة الشقة المجاورة ..

الشقة الآن مغلقة . أتردد عليها كل أشهر . أضع فيها ما لا أحتاج إليه من الكتب . تتكرر ملاحظة نجلاء عن البيت الذى صار من ورق . التعبير له معنيان كما ترى . أحاول ــ بتصرفى ــ أن أسد باباً يأتى منه الريح ، وإن كانت الأبواب المفتوحة ــ فى حياتنا ــ كثيرة . تأتى بالريح والعواصف والنوات ..

ظللت أتردد على أبى ، بعد أن رحلت أمى .

إقامته فى الشقة قليلة ، للنوم وتناول الطعام . معظم وقته فى قهوة فاروق مع أصدقاء لا أراهم إلا فى القهوة . أحدس أنه تعرف إليهم فى أيام المعاش . أفضل لقاءه أمام دكان عم عبد السلام . يتشاغل بقراءة جريدة ، أو بالتطلع إلى حركة الطريق . غبت عن البيت أكثر من سنة ، بعد أن شيعت أبى إلى مقابر المنارة . عانيت استعادة الذكريات والتأثر . ثم بدأت زيارات متباعدة . أفتح الباب . أضئ النور لأبدد ظلمة الشقة المغلقة . أضع ما أحمله من صناديق الكتب فى أى موضع خال ، ثم أغلق الباب ..

الطابق الأول تقيم فيه ــ ما تزال ــ أسرة نجلاء . الأبوان والأخوة الثلاثة . أكتفى ــ إن لم تصحبنى ــ بزيارات المجاملة السريعة . تميل المناقشات ــ لا أدرى كيف ــ إلى طريق وعرة وحقول ألغام . تبين ملاحظات الأم عن النبع الذى تستمد منه نجلاء كلماتها . الأب يكتفى بنظرة متسائلة ، أو مشفقة ، أو شاردة ..

اعترضت أمى ــ فى البداية ــ على تقدمى لخطبة نجلاء .

قالت فى لهجة مشفقة :

ـــ أعرف أنها كانت تحب خطيبها ..

ـــ لماذا فسخت الخطوبة إذن ؟

ـــ هذا ليس دليلاً على فقدان الحب ..

ـــ هى التى أصرت على تركه ..

تدخل أبى :

ـــ من واجبنا أن نسأل عن أسباب الخطوبة ..

لقاؤنا العفوى فى بسطة السلم ، دفعنى إلى إهمال اعتراضات أمى ونصيحة أبى ..

قالت وهى تنظر ـــ فى حياء ـــ إلى الناحية المقابلة :

ـــ لم أكن أعرف أنى لا أحبه ..

وزاد صوتها شحوباً :

ـــ وأنى أحبك ..

تغطت كلماتنا ـــ فى الأيام التالية ـــ بقطر الندى والفل والياسمين والأمنيات والأحلام والفراشات الملونة ..

ـــ أدع لى يا عم عبد السلام ..

ـــ الإسكندرية كلها مشمولة بدعوات الأولياء وبركاتهم ..

واتسعت البسمة فى وجهه :

ــ الإسكندرية فى حمى الأولياء ..

وأومأ بلفتة من رأسه :

ــ كنت صغيراً ، لكننى أذكر عندما أنقذ سيدى أبو الدرداء المدينة من الطوربيد ..

وارتعش صوته بالانفعال :

ــ علت يده من الضريح .. التقط الطوربيد وقذف به فى البحر ..

وخنق التأثر صوته :

ــ بركات أولياء الله ومكاشفاتهم فى منع الخطر عن الإسكندرية لا حصر لها ..

ملت من حارة ابن صفوان إلى شارع الموازينى . اخترقت زحام البشر والباعة والخيام والسرادقات الصغيرة ، إلى الميدان الخلفى لجامع أبو العباس .

الفصل العاشـــر

لست من قراء الروايات ، لكن زميلى الدكتور يوسف حامد الأستاذ بقسم اللغة الإنجليزية ، أشار إلى معلومة عن الإسكندر فى رباعية لورانس داريل ، صبرت على قراءة الروايات كلها ، حتى طالعتنى الفقرة التى استعرت الرواية من أجلها . قيل إن أذنى الإسكندر كانتا أشبه بأذنى حمار ، وكان حلاقه اليونانى وحده هو الذى يعرف السر . ولأن اليونانيين لا يستطيعون امتلاك السر ، وحتى يفض الحلاق عما بنفسه ، فقد ذهب إلى حقل قريب ، وباح للساقية فيه بما أجهده كتمه ، ونقلت الساقية ــ فى نواح ــ ما سمعته إلى الساقية المجاورة . وناحت الساقية المجاورة بما سمعت إلى ساقية ثالثة ، وظلت السواقى ــ من يومها ــ تنوح بالسر دون أن يفهم الناس ما تقول ..

عنى بطليموس الأول بالحرب فى آسيا الصغرى ــ لا لأن توسيع الحرب شغله ، ولا حتى الدفاع عن الإمبراطورية الجديدة ، وإنما لأنه أراد الحصول على جسد الإسكندر ،

على جثمان قائده الذى اختطفه الموت . أخذ الجسد وهو فى طريقه من فارس إلى واحة آمون ، ودفنه فيما تباينت التخمينات حول موضعه ..

أين دفن الجثمان على وجه التحديد ؟..

طلب الإسكندر ــ فى الوصية التى كتبها قبل وفاته ــ أن يدفن جوار أبيه الإله زيوس آمون . الموضع الذى دخل فيه الإسكندر عبادة آمون . الأرجاء الفسيحة ، والنقوش ، والأعمدة المزدانة بالرسوم والألوان ، وأعمدة المرمر ، فوقها الآنية البلورية . لكن الموكب الجنائزى ــ كما تشير برديات ديودروس الصقلى ــ لم يكمل رحلته إلى سيوة . كهنة معبد منف ــ عاصمة البلاد ــ أخذوا الجثمان ، واحتفظوا به فى مقابر المعبد . وأثيرت اجتهادات كثيرة ..

قيل إن الإسكندر استحم فى ينبوع الشمس ــ أشهر عيون سيوة ــ قبل أن يزور معبد الوحى فى الواحة ..

هل يكون الكنز فى موضع الاستحمام ؟

الكثير من الروايات التاريخية يؤكد أنه قد أخذ كل ما فى قبر الإسكندر من ذهب ومجوهرات . لم تتفق الروايات على شخص الإمبراطور الذى سرق التابوت الذهبى ،

واستبدل به تابوتاً من الزجاج . ثمة رواية أن كليوباترة عانت ضائقة مالية ، فاستولت على الكنز . حتى التابوت الذهبى استبدلت به تابوتاً من الزجاج . لا تشغلنى تلك الروايات ، لا تهمنى . بحثى عن الطلسم الذى يهب الإسكندرية تواصل الحياة ..

أقلب الكتب القديمة فى مكتبات العطارين . يهمنى كتب التراث والتاريخ الإسلامى والعربى . أشترى ــ أو أستعير ــ ما يتحدث عن ذى القرنين ..

استوقفنى الكثير مما كتبه المؤرخون والرحالة عن الإسكندرية فى عصورها الأولى .

وصف ابن عبد الحكم الإسكندرية ــ بعد ٢٢٠ سنة من فتح العرب لها ــ أن ذا القرنين قد رخمها بالرخام الأبيض ، لدرجة أن أهل الإسكندرية القدماء كانوا لا يشعلون المشاعل أو المصابيح ليلاً ، من شدة بياض الرخام " . وقال المسعودى : " وكان بناء الإسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، عليها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس ، وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة ، وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق

وتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء . وقد كانت الإسكندرية تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر ، وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها ، لئلا يصيب أهلها شئ من المطر . وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها ، بينها خنادق ، وبين كل خندق وسور فصلان ، وربما علق على المدينة شقائق الحرير الأخضر ، لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه . فلما أحكم بناؤها ، وسكنها أهلها ، كانت آفات البحر وسكانه ــ على ما زعم الإخباريون من المصريين والإسكندريين ــ تختطف بالليل أهل هذه المدينة ، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير . ولما علم الإسكندر بذلك ، اتخذ الطلسمات على أعمدة تدعى المسال ، وهى باقية إلى هذه الغاية . وكل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة ، وطول كل واحد منها ثمانون ذراعاً ، على عمد من النحاس ، وجعل تحتها صوراً وأشكالاً وكتابة ، وذلك عند انخفاض درجة من درجات الفلك وقربها من هذا العالم . وعند أصحاب الطلسمات من المنجمين والفلكيين انه إذا ارتفع من الفلك درجة ، وانخفض أخرى ، فى مدة يذكرونها من السنين

نحو ستمائة سنة ، تأتى فى هذا العالم فعل الطلسمات النافعة ، المانعة ، والدافعة . وكتب الإدريسى : " وهى ــ الإسكندرية ــ حصينة الأسوار ، نامية الأشجار ، جليلة المقدار ، كثيرة العمارة ، رائجة التجارة ، شامخة البناء ، رائعة المغنى ، شوارعها فساح ، وعقائد بنيانها صحاح ، وفرش دورها بالرخام والمرمر ، وحنايا أبنيتها بالعمد المثمر ، وأسواقها كثيرة الاتساع ، ومزارعها واسعة الانتفاع ، والنيل الغربى منها يدخل تحت أقبية دورها كلها ــ وتتصل دواير بعضها ببعض " . والإسكندرية ــ فى رؤية ابن خلدون ــ " هى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن . كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمال المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن ، لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصففوا فى عجائبها فأغربوا " . ويصف صاحب كتاب " الاستبصار : مدينة الإسكندرية ، وما بلغته من عمران فى العصر الأيوبى بقوله : " والإسكندرية تعجب

كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها ، وإتقان وسعة شوارعها وطرقاتها ، وهى برية وبحرية ، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها " . ويقول عنها ابن بطوطة : " العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين " . وهى ـــ كما يقول الحميرى فى " الروض المعطار " " تعجب كل من رآها لبهائها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها ، وسعة شوارعها وطرقها " . وقد سميت الإسكندرية باسم " الثغر " فى عهد الدولة العباسية ، لأنها التسمية التى تطلق على مدن الحدود . " . وقال ابن الجوزى : " قدمت الإسكندرية فوجدتها كما قال تعالى : " ذات قرار ومعين " مغمورة بالعلماء وبالأولياء ، كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى شامة " . ويصف ابن جبير الأندلسى الإسكندرية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى بأنها بلد لا يوجد أوسع مسلكاً منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ، وأنها " أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر ، ومنهم المقلل . المكثر يقول فى تقديره ١٢ ألف مسجد ، والمقل لا يقل

تقديره عن ٨ آلاف مسجد " . ويصفها السيوطى بأنها مدينة بيضاء ، تلمع فى النهار والليل . وكان أهلها جميعاً يلبسون الثياب السود والحمر ، لأن أرضها وبناءها من المرمر الذى كانوا يتّقون بياضه المبهر باتخاذ الثياب الداكنة ، يرتدونها حتى فى الليل ، فإن ضوء القمر ــ إذا وقع فيها على الرخام الأبيض ــ جعلها تضئ . وقيل " أربعة أبواب من الجنة ، مفتّحة فى الدنيا : الإسكندرية وعسقلان وقزوين وجدة " .. " الإسكندرية كنانة الله يحمل فيها خير سهامه " . وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى : " لما نعى إلى ابن عمى خالد بن زيد ــ وكان قد توفى بالإسكندرية ــ لقينى موسى بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ، متفرقين . كلهم يقولون : أليس مات بالإسكندرية ؟ فأقول : بلى . فيقولون : " هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك .

* * *

الإسكندرية ــ ومصر كلها ــ تدين لطلسم قديم بحياتها . لولاه لأغرقها البحر والنيل . تشير الأبحاث ــ وإن لم تشر

إلى ذلك صراحة ــ أن الطلسم بعض ما خلفه الإسكندر فى كنوزه . لو أنى أعثر على الطلسم ، فأفيد منه ..

لما قدم البطالسة ، أهملوا منف ، وعنوا بالإسكندرية . شيّدوا بها عشرات المبانى والمعابد والمدارس ، وشقّوا الطرق والميادين . استكملت المدينة ملامحها : الحى الملكى ، مدينة الحيوان ، دار الحكمة ، المكتبة ، الجمنازيوم ، ميدان سباق الخيل ، ميدان الألعاب الرياضية ، التل الصناعى ، معبد السرابيوم المطل على راكوتيس ، منارة الإسكندرية ، الباليسترا ، القصور ، البنايات ذات الأسلوب المعمارى المتميز ، وملامح أخرى غيرها . صارت الإسكندرية ــ والقول لعلى مبارك فى خططه ــ " مركزاً لجميع أمور العالم ، وشاع ذكرها حتى ملأ الآفاق ، وقصدها جميع الناس ، فاتسعت حدودها ، وعظم أمرها ، وفاقت جميع مدن الدنيا فى تلك الأزمان " .

الفصل الحادى عشر

أجلس على قهوة " إمبريال " تحت فندق سيسل ، قبالة سعد زغلول . الأبواب والنوافذ الزجاجية ، تمتد فى زاوية الميدان وشارع الغرفة التجارية . صفت الطاولات والكراسى بامتداد الواجهة ذات الشبابيك الزجاجية الخمسة ، كل شباك له أربع ضلف ، واختلط الرواد والنداءات والمترددين على بائع العصير ــ إلى اليمين ــ يجاوره شباك حجز أوتوبيس غرب الدلتا وكشك الصحف .

امتداد الرصيف إلى فندق سيسل ، يفصله عن المقهى دكان صغير لبيع السجائر والمياه الغازية . وإلى اليسار طريق الكورنيش يحيط بزاوية من المينا الشرقية .

فى نهاية الأفق جزء من حاجز الأمواج . وثمة قوارب صغيرة ، متناثرة . وإلى اليمين مبنى الغرفة التجارية بموقعه المتفرد على ناصية شارع الغرفة التجارية ، وشارع ابن زنكى المسقوف بتندات باعة الملابس المستوردة ، العربات

والأكشاك ، تعلوها تندات القماش ، صفت بها الفساتين والبنطلونات الجينز والملابس الداخلية والفوط وأنواع لا حصر لها من الأحذية والصنادل والشباشب .

امتداد الطريق إلى شارع صفية زغلول ، وتقاطعات الشوارع المفضية إلى باب شرقى . الباب الرئيسى الحديدى ، المنقوش ، فى منتصف الزاوية ، على جانبيه عمودان هائلان بارتفاع طوابقه الثلاثة . يعلوه شعار الإسكندرية ذو الطابع البطلمى . فى المواجهة سعد زغلول يتجه ـــ فى وقفته ـــ ناحية البحر ..

لم أكن أول من حاول البحث عن القبر فى ميدان تمثال سعد زغلول وحديقة القنصلية الإيطالية . هما امتداد طريق الأعمدة الذى يجد نهايته فى شاطئ المينا الشرقية ، معبد إيزيس ، وتمثالها الرخامى الكبير . إلى جانبه الأيمن قبر الإسكندر .

ذكر سترابون أن القبر فى الحى الملكى . ينتهى ناحية الجنوب بالشارع الطولى الرئيسى . شرق تقاطع الشارعين الرئيسين ، شمال جامع النبى دانيال بما يساوى عرض الشارع . ربما الضريح ، السوما ، فى موقع جامع النبى

دانيال . عند التقاطع المحورى ، فى الركن الجنوبى الشرقى من تقاطع الطريقين العرضيين : طريق كانوب وشارع السوما ، فى نقطة بالقرب من وسط المدينة . يسيران بمحاذاة الخطوط العامة لطريق الحرية من الشرق إلى الغرب ، وشارع النبى دانيال من الشمال إلى الجنوب . كان الشارعان ــ كانوب والسوما ــ يضمان أحد عشر شارعاً من الشمال إلى الجنوب ، وسبعة طرق من الشرق إلى الغرب . لعله فى مكان ما بالقرب من نقطة تقاطع شارع جمال عبد الناصر مع شارع النبى دانيال . ربما موقع السوما يقع بين تل كوم الدكة وجامع النبى دانيال . هذا هو مركز الإسكندرية . طبيعى أن يتم دفن مؤسس المدينة بالقرب من مركزها .

* * *

من هو النبى دانيال ؟

اسمه محمد دانيال الموصلى . من شيوخ المذهب الشافعى . قدم إلى الإسكندرية فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، واتخذ من مسجد ذى القرنين مكاناً لتدريس الفقه وأصول الدين على نهج الشافعية . عندما توفى فى ٨١٠ هجرية دفن

فى الضريح الملحق بالمسجد . أصبح الموقع مزاراً للناس ، وتحولت صفة الشيخ إلى صفة النبى ، فهو النبى دانيال .

لعل استبدال اسم دانيال باسم ذى القرنين لما أصاب الإسكندرية فى العصر العثمانى من الخراب والدمار ، بحيث تغيرت معالمها . ولم يعد فى داخل المدينة العربية أكثر من مائة بيت ، بينما تحول معظم السكان إلى ساحل البحر ، وشيدوا بيوتهم فوق الأرض التى تخلفت من انحسار الأمواج . يقول " مابى " قنصل فرنسا [١٧١٨] إن مدينة العرب قد هجرت بالكلية ، فكانت خراباً بلقعاً لا يأوى إليها إلا أشقياء الناس . وتلك البلد التى حدثت ، بنيت بأنقاض مدينة الأروام " . أعاد محمد على بناء مدينة الإسكندرية ، وجدد جامع ذى القرنين . لم يكن ــ فى ذاكرة الناس ــ سوى اسم دانيال ، فأطلق على الجامع . اللافتة تعلو الباب ذى الحديد المتشابك . مسجد النبى دانيال . يفضى إلى ساحة صغيرة ، ثم ثلاث درجات من الرخام ، تعلوها ساحة أشد اتساعاً ، ثم درجات أربع ، إلى ساحة ثالثة . باب المسجد فى المواجهة . خشبى من ضلفتين ، من ورائه صحن المسجد .

أخلف مسجد النبى دانيال ورائى .

أتجه إلى المسجد المواجه . سيدى عبدالرزاق الوفائى ، بجانبه وتحته أعمدة تعود إلى عصر الرومان . ثمة رواية أن قبر الإسكندر تحت المسجد . أقيم على كنيسة . بابها الحديدى مغلق على قبر الإسكندر ..

تركت المكان . تباطأت خطواتى وأنا أرقب لافتة البن البرازيلى فى بناية سعد زغلول ، على ناصية الشارع المفضى إلى البحر .

* * *

ابن عبد الحكم زار الإسكندرية فى ٩٤٤ بعد الميلاد . شاهد مسجد ذى القرنين . قال : خمسة مساجد بالإسكندرية : مسجد موسى النبى عند المنارة ، أقربها إلى الكنيسة ، ومسجد سليمان عليه السلام ، وهو الذى عند اللبخات بالقيسارية ، ومسجد الخضر أو ذى القرنين عند باب المدينة ، حين تخرج من الباب ، لكل واحد منهما مسجد ، لكن لا ندرى أين هو ، ومسجد عمرو بن العاص الكبير . كان العامة هم الذي يسمون المساجد ، وليس الدولة .

من أين جاءت تسمية مسجد ذى القرنين ؟

ما حدث فى بناء جامع العطارين والجامع الغربى ، أنهما أقيما فى موضع معبدين قديمين ، فهل أقيمت المساجد الخمسة فى مواضع مماثلة ؟

محمود الفلكى يذهب إلى أن وسط المدينة عند تقاطع الشارعين الرئيسين ، وأن قبر الإسكندر فى جنوب شرق تقاطع الشارعين ، فالموقع الذى حدده أسفل مسجد النبى دانيال . ثمة ضريح به قبران ، قبر رئيس ينسب إلى النبى دانيال ، وقبر جانبى ينسب إلى لقمان الحكيم . لكن القبر الرئيس يتعامد مع القبلة ، بينما القبر الجانبى يأخذ الوضع الشرعى ، أى الوضع الأفقى من القبلة . المدفون فى القبر الرئيس إذن ليس مسلماً . مات قبل دخول الإسلام الإسكندرية . أما صاحب القبر الجانبى فهو من المسلمين ..

أفتش عن سلم يفضى إلى فناء مربع الشكل ، يتصل به ممر طويل يتجه إلى القبر . يشغلنى توقع الرنين الذى يشى بما أحيا لاكتشافه .

يصف المسعودى القبر بأنه فى تابوت من المرمر على أحجار وصخور ورخام . ليون الإفريقى زار المدينة فى القرن السادس عشر . وصف قبر الإسكندر بأنه مبنى على

شكل ضريح تحيط به الأطلال . ثمة رواية ليونانى من سكان الإسكندرية أنه نزل فى ١٨٥٠ إلى سرداب تحت جامع النبى دانيال . شاهد ـــ من ثقب باب خشبى ـــ صندوقاً زجاجياً ، بداخله جثمان رجل ، على رأسه تاج ، وحوله كومات من الكتب وملفات البردى . ما ترويه كتب التاريخ القديم أن بطليموس الحادى عشر [حوالى ٨٠ ق . م] استبدل بالتابوت الذهبى الذى أودعت فيه جثة الإسكندر ، تابوتاً آخر مصنوعاً من الزجاج . ولما عانت كليوباترة أزمة مالية ، فإنها استولت على كل ما فى المقبرة من نفائس ..

***

ارتقيت الكورنيش الحجرى ..

الأمواج العالية ترتطم بالمكعبات الإسمنتية . ترتفع المياه عالياً . تقتحم فجوات الصخور والمنحدرات الزلقة . تندفع إلى الشارع . يتطاير الرذاذ والزبد إلى مسافات بعيدة ..

ماذا عن مستقبل الإسكندرية ؟..

هل تتآكل الشواطئ ؟ هل يلتهمها النحر ؟..

منسوب المياه ــ فى البحرين المتوسط والأحمر ــ يرتفع ــ منذ أواخر الثمانينيات ــ بمعدل بوصة كل سنة ، أى أن معدل الارتفاع ــ فى خمسين سنة ــ سيبلغ متراً ونصف المتر

لماذا ؟

يتحدث علماء البيئة عن زيادة البقع الشمسية ، فترتفع حرارة الأرض . ترتفع نسبة غاز أوكسيد الكربون فى الأجواء بنسبة هائلة ، مخيفة . يختل الغلاف الجوى ، وتضعف مقاومته . تذوب ثلوج القطب الشمالى ، ويزيد منسوب المياه من المحيطات إلى البحرين الأحمر والمتوسط ، ويبين الخطر عن ملامحه . لن تغرق الإسكندرية وحدها . ستغرق معها كل المدن التى تطل على سواحل البحار والمحيطات ، لا فرق بين مدينة متمدينة ، وأخرى تعانى التخلف : نابولى ، بيريه ، بيروت ، طرابلس ، مارسيليا ، برشلونة ، نيويورك ..

حدد العلماء خمسين عاماً ، يرتفع فيها ــ أو بعدها ــ منسوب مياه البحر ، فيبتلع الإسكندرية ..

يتغير المناخ ، وتأتى التيارات المائية البحرية فى اتجاه عمودى على الشواطئ . الأمواج ــ فى تأكيدات الخبراء ــ هى الآن صاحبة الكلمة العليا فى تحديد مساحة الشواطئ على الساحل السكندرى ..

الأمواج يرتفع منسوبها أمام شواطئ المدينة ، فالمدينة إذن فى المدى البعيد ، أو القريب ، يتهدّدها الغرق . ثقب الأوزون ، زيادة حرارة الجو ، انحسار حزام المطر ، ارتفاع مياه المحيطات ، ارتفاع نسبة ثانى أوكسيد الكربون .. البواعث كثيرة ، لكنها تصب فى توقع غرق شواطئ المتوسط .

تتوالى الأعوام . يفقد الشاطئ الرمال . تتآكل الشواطئ الرملية . لا مصدر طبيعياً للرمال يغذى الشاطئ ، مثلما كان الأمر ــ قديماً ــ على شواطئ الدلتا بطمى الفيضان . لا يقتصر الخطر على النحر والتآكل . ربما رافقه ، أو سبقه ، زلازل وبراكين يسببها ضغط المياه على طبقات الأرض فى قاع البحر . يحدث الانهيار .

فى القرن الثانى قبل الميلاد ، كان شاطئ البحر الأبيض يبعد عن حدود شاطئه الحالى بمسافة ما بين مائة

وخمسين ومائتى متر . أكلت مياه البحر أجزاء كبيرة من الدلتا . اختفى عدد من أنهارها السبعة التى كانت تصب فى البحر . اتصلت بحيرة البرلس بالبحر ، بعد أن كانت تبعد عنه . تحولت من بحيرة نيلية إلى بحيرة بحرية . فنار رشيد هو الآن فى قلب البحر بعد أن كان على الرصيف . الإسكندرية القديمة تحت عمق سبعة أمتار من الإسكندرية التى نحيا الآن فوقها . تحت الأرض والبحر . الدور والقصور المشيدة من الرخام الأبيض والملون ، الشوارع المبلطة بأحجار البازلت وقطع الرخام ، الأعمدة والبواكى التى تحمى المارة من المطر وحرارة الشمس ، الحدائق والميادين المزينة بالأعمدة والتماثيل ، بقايا المنار الذى مثل واحدة من عجائب العالم القديم . دليلنا الشوارع والأحياء والبنايات التى تكتشفها عمليات الحفر العادية فى أرض المدينة .

نحيا بالمياه .. كيف تقتلنا ؟

* * *

جليم ..

يشتد النحر فى المنطقة بين ميامى والمنتزة . جليم هى المنطقة الأشد تعرضاً للخطر . لو لم يتدارك النحر ، فسيتقوض الشاطئ ، ثم تتصدع التربة ، وتغوص الإسكندرية فى داخل البحر .

ما أقسى التصور !..

الشاطئ ، البنايات ، الميادين ، الشوارع ، الأسواق ، الجوامع ، الحدائق ، كل شىء يغرق ، يتلاشى ، يغيب تحت الماء . يضاف إلى طابقى الإسكندرية المغمورين طابق ثالث ، تختفى الطوابق الثلاثة تحت الماء .

الدراسات تشمل حركة الأمواج ، والتيارات المائية ، واتجاهاتها ، ودراسة قاع البحر .

القلابات تأتى بكتل الدبش من محاجر جبل عتاقة بالسويس . تلقى أمام الجدار القائم لتقليل اندفاعات الأمواج ، صدماتها . الحواجز تكسر الأمواج ، تدعم الشاطئ بترسيب الرمال التى تحمل الأمواج . تستخدم التيارات البحرية فى تنمية الشاطئ ، وتقام منشآت لصيد الرمال اللازمة ، وحواجز من الرسوبيات المحمولة بالتيار البحرى ، ومنشآت تهدئ الأمواج والتيارات عند خليج الخربات ..

يمكن لتأثيرات الأمواج والتيارات والتآكل والردم ، أن تزيل الشاطئ ، وتردم الخليج بأكمله

هل يلجأ أبناء الإسكندرية إلى مواجهة الخطر ــ ذات يوم ــ بإلقاء الرمال والحجارة على امتداد الساحل ، لا لكسب أرض جديدة مثلما يفعل الهولنديون ، وإنما لمجرد الحفاظ على الأرض الحالية ، فلا يلتهمها البحر ؟

كل الحواجز التى نضعها على الساحل لا قيمة لها ، أمام الزحف المستمر للمياه ، الارتفاع المتصاعد لها ، التآكل والنحر والابتلاع ، وكل المسميات التى تعنى اختفاء الإسكندرية . حتى حقن الشواطئ بالرمال له أخطاره . المتوقع أن يضيع ٢٠% من الرمال فى العام الأول ، ويضيع ٥% كل عام ، بحيث لن تزيد مدة بقاء الرمل أكثر من ١٦ عاماً ، والأرقام الأقل واردة !

الخبراء أيضاً هم الذين يضعون الحلول لمواجهة الخطر : إنشاء " ألسنة " ــ جمع لسان ــ داخل البحر ، فى مناطق مختلفة ، تحددها التيارات المائية لإضعاف حركة الأمواج ، والحد من سرعتها ، وإنشاء حواجز غاطسة تحت المياه لكسر سرعة الأمواج ، وإقامة مصدّات وحواجز

صناعية شريطة ألاّ يؤدى ذلك إلى سحب الرمال من أسفل الكورنيش ، مما يهدد البنايات على الشاطئ بالسقوط . وزاد الخبراء فاقترحوا ــ تلافياً لأخطار محتملة ــ عدم إنشاء بنايات فى الأراضى القريبة من سطح البحر .

ألفت التردد على معهد بحوث الشاطئ ، والهيئة المصرية لحماية الشواطئ ، وقسم العلوم الطبيعية بكلية العلوم ، والمعهد القومى لعلوم البحار . أصبحت مشغولاً بما لم أتصور أنى أنشغل به : قياس الأمواج ، والتيارات ، وظاهرة المد والجزر ، وتغير حركة الرمال ، وظاهرة النحر ، وطبيعة مواد القاع ، ومعدلات التآكل ، ومصادر الرمال . حتى النوات التسع عشرة كل عام ، أعرف مواعيدها من أواخر سبتمبر حتى الأسبوع الأول من إبريل . فى رأسى ــ لا تتركه ــ ضربات الفؤوس والمعاول ، وطرقات الأزاميل ، ونداءات العمال والمهندسين ومفتشى الآثار ، والرؤية فى الظلمة ، ورائحة الرطوبة والعطن ، وكتل الجرانيت والقصور المطمورة والأعمدة الرخامية والمعابد والمسلات والمومياوات .

ما يثير شهيتى العلمية ، وأطيل التوقف أمامه : أن الإسكندر ــ هكذا تقول الروايات ــ أوصى بأن يدفن فى مصر ، فى سيوة ، أو فى الإسكندرية ، فهو مدفون فى مصر . القبر فى موضع ما من أرض مصر . الكنز فى داخل القبر . فى داخله الطلسم الذى يهب الإسكندرية حياة متجددة ..

الفصل الثانى عشر

فاجأنى المطر فى وقفتى على الكورنيش . جريت ناحية القهوة التجارية المواجهة . وقفت تحت التندة بين الكراسى ..

النوات تتوالى ، دون أن أجد ما يشى بالكنز الذى أتطلع إليه ..

ظهرت ــ تحت الحفر ــ فى المينا الشرقية ، بلاطات هائلة ، ليست من الرخام ولا الأسمنت ، ولا حتى من الحجارة البيضاء . غمرتها الرمال ، فلم يظهر من أين تبدأ ، ولا أين تنتهى . انهالت المعاول حتى ظهرت ثغرة ، بدا من خلالها بقايا أعمدة مستديرة من الرخام الأبيض المصقول ..

زرت عالم المصريات جاك شارتييه ــ للمرة الأولى ــ فى المركز الثقافى الفرنسى . من أربعة طوابق على الطراز الشرقى . واجهته الصفراء ، ونوافذه ، وشرفاته العالية ، تطل على حديقة يحيط بها سور ، وباب حديدى ضخم . صعدت الدرجات الرخامية إلى الطابق الأول . القاعة

الواسعة يتوسطها صالون فرنسى الطابع ، ويحيط بها حجرات مغلقة ، أو مواربة . وإلى اليسار سلم ــ مفروش بالسجاد الأحمر ــ يفضى إلى الطوابق العليا ..

ترامى صوت من داخل الحجرة المغلقة :

ــ تفضل ..

فى حوالى الخامسة والثلاثين . قامة طويلة ، أقرب إلى النحافة . وجه شاحب ، ناحل ، عيناه زرقاوان ، واسعتان ، تحضنهما أهداب طويلة . علا خديه حمرة . أنفه مدبب ، حاد . له صوت أخن .

قال جاك شارتييه :

ــ هذا اكتشاف عظيم .. لكنه ليس قبر الإسكندر ..

قلت :

ــ وهذه المعابد والمسلات والبنايات ..

ــ إنها مدينة كليوباترة ..

وأشار ناحية المينا الشرقية :

ــ هذا هو قصر كليوباترة .. كانت تلجأ إليه للراحة من عناء الحكم ..

ثم أشار الى الناحية المقابلة :

ـــ والمعبد الآخر أقامته لتخليد ذكرى مارك أنطونيو ..

ـــ لكن المسلتين فى داخله فرعونيتين ..

ـــ الإسكندرية كلها ـــ كما تعرف ـــ مدينة فوق مدينة بطلمية .. معابد ومسلات وميادين وقبور وبنايات ضخمة ..

ـــ واحدة من المسلتين لرمسيس الثانى .. والأخرى لتحتمس الثالث .. ألغى كهنة المعبد مسلة مارك أنطونيو بعد وفاة كليوباترة .

قلت :

ـــ تقصد أنه لا توجد آثار فرعونية ؟

ـــ هذا ما يقوله العلم .. لا مظاهر فرعونية فى الإسكندرية البطلمية ، وما عثر عليه أراد به الرومان تزيين المدينة .

شغلنى الأمر ..

نسيت قبر الإسكندر ، والكنز ، والأوراق الوصية ، والطلسم .

إذا لم يكن قبر الإسكندر مطموراً فى المينا الشرقية ، فإن المكان يحوى ـــ لابد ـــ معبد قيصر . هو ـــ آنذاك ـــ إله الملاحين والغواصين ، يحميهم من أنواء البحر وعواصفه

ورياحه وتقلباته . وربما لو أنى لم أعثر على قبر الإسكندر ، وجدت أثراً مما تمتلئ به المنطقة ، حول قلعة قايتباى ، وتحت الميناء الشرقية ، قد يكون أجزاء من الحى الملكى .

اصطدمت المعاول بثلاثة تماثيل متوسطة الحجم ، وأحجار بها نقوش هيروغليفية ، وأوانى نذور وقرابين ، وأجزاء من أعمدة قديمة ، وجرار بها قطع ذهبية وعملات ، وتمائم ، وأوانى فخارية .

أعرف أن جاك شارتييه لا ينقب عن الآثار بإذن من الحكومة دائماً . الآثار غير المسجلة يرتفع ثمنها . الآثار المسجلة يقل ثمنها كثيراً . المعاهدات الدولية تأذن بإعادة الأثر المهرب مادام قد سجل فى بلده .

الفصل الثالث عشر

ركبت الترام من ميدان المنشية إلى المحطة النهائية فى النزهة ، إلى نهاية الخط ، قبالة ترعة المحمودية . الأرض الترابية والأشجار المتباعدة ، والمتقاربة ، والدكاكين والمقاهى الصغيرة والغرز والأسوار والكبارى الموصلة بين الضفتين ، والدوامات المحيطة بقوائم الكبارى ، والمراكب ــ سطحها فى مستوى المياه ــ محملة بالأجولة والحديد وبلوطات الخشب وأوانى الفخار . وفى الشاطئ المقابل تتلاصق المخازن والمستودعات والشون ، ويتصاعد دخان المصانع ..

تنبهت إلى طول المشوار فى دخول الناس وخــــروجهم من حديقة حيوان النزهة . البوابة ذات الحديـــد المشـــغول ، المطلة على ترعة المحمودية . قديمة ، لها كتفان من الرخام ، يعلوهما أسدان رخاميان كذلك . يترامى ــ عبر السور ــ اختلاط ، متقطع ، لأصوات الحيوانات والطيور ..

هل جلست فى الترام كل هذه المسافة دون أن ألحظ ؟. هل لأنى انشغلت بالتأمل ، أو لأنى أفكر فيما يحدث ، وما أتوقع حدوثه ؟..

* * *

قلت لعم عبد السلام ، متشجعاً بخلو الدكان :

ــ أريدك فى وصفة طبية ..

هز رأسه يستحثنى :

ــ أنا حلاق فى كل الأحيان .. وطبيب أحياناً ..

لم يكن يكتفى بالحلاقة . أعرف شطارته فى عمليات الختان ــ يجريها فى السر داخل البيوت ــ وفى عمليات فصد الدم الفاسد بموسى الحلاقة بعد تطهيره ، ويشير على زبائنه بمقويات ومراهم ومساحيق وأقراص وأشربة وأعشاب برية تنقى الدم وتقوى الباه ، وينصح بلصقات لبخة وكاسات هوا . أخمن سر الهمسات التى يتبادلها ــ تلحقها ضحكات مكتومة ــ بين الرجل وزبائن تقدم بهم العمر . لم يهمس فى أذنى بعرض من أى نوع ، فأدركت الإطار الذى وضعنى فيه .

قلت :

ــ أعرف .

انعكس تأثره فى تهدج صوته :

ــ ليس طباً بالتحديد .. إنها وصفات شعبية تعلمتها بالخبرة ..

والتمعت عيناه ، وفرك يديه فى تأهب :

ــ يقولون : اسأل مجرب ..

قاومت الارتباك :

ــ هل أستطيع أن ألجأ إلى تجربتك ؟

ــ هى خبرة لا يحتاجها إلا الشيوخ أمثالى ..

وأنا بين اليقظة والنوم ، تحسست الوسادة بجانبى . بسطت يدى . لم أجد فى الفراغ سوى الغطاء . انتفضت بتلقائية ، وأضأت النور . لم تكن فى الحجرة . لامست موضع نومها ، فبدا بارداً .

أهملت دس قدمى فى الشبشب وأنا أتلفت فى الشقة . لم أستطع تخمين ماذا كانت تفعل تلك اللحظة فى جلستها على المكتب . أزاحت أوراقاً كنت مشغولاً بمراجعتها قبل أن أمضى إلى النوم . فردت ــ بدلاً منها ــ كتاباً مجلداً . طوته بين إصبعيها لرؤيتى ، ورفعت ناحيتى عينين متسائلتين .

اتجهت إلى الناحية المقابلة ، حتى أقطع عليها محاولة استفزازى .

ثمة شئ غامض فى كلامها وتصرفاتها ، وحتى إيماءاتها ، وضع جداراً بينى وبينها . أحتضنها . شفتاى على شفتيها . ذهنى سارح فى عمليات الحفر التى لم تكتمل فى الميناء الشرقية . أثق أنها تفكر فى عمليات الولادة التى تتوقع أن يطلبها المستشفى لإجرائها . صرنا نعيش فى عالمين مختلفين ، متباعدين . أخفقت كل محاولاتى لتقريب المسافة بينى وبينها ..

كنت أشعر بالراحة إذا لفنا الصمت . إذا انشغلت بالقراءة ، أو بالفرجة على التليفزيون . أظل فى حجرة مكتبى ، لا أتركها إلاّ إلى دورة المياه ، أو إلى المطبخ ..

لماذا تزوج الإسكندر بنت دارا ملك الفرس ، بعد أن واجه دارا الهزيمة أمام الإسكندر ثلاث مرات ، وقتل ؟..

قلت :

ــ ما أطلبه ليس علاجاً .. لى صديق يريد وصفة ليستميل قلب زوجته ..

وأزلت بإصبعى بقايا الصابون من تحت أذنى :

ـــ تسوق التقل عليه ..

ـــ مثل هذا الأمر يحتاج إلى عمل أو حجاب ، وهو ما لا أجيده ..

ثم وهو يغمز بعينه :

ـــ انصح صديقك أن يعتصم بالصبر !

يشقينى البحث عن سكينة النفس . أريد أن أفر بروحى ، أعلو بها عن الرمال التى تسوخ فيها قدمى ..

تشاغلت ـــ فى وقفتى خلف زجاج الباب المغلق ـــ بالتطلع إلى الشرفات والدكاكين والمقاهى واللافتات وأطباق الفضائيات ومناشر الغسيل ..

قالت لى نجلاء :

ـــ هذه الأبحاث .. ألا تخشى من لعنة الفراعنة ؟..

قلت :

ـــ أنا أبحث فى العصر البطلمى .. وتلك لعنة الفراعنة ..

ـــ مجرد إضاعة وقتك فيما لا يجدى لعنة يجب أن تتخلص منها ..

ـــ فإذا عثرت على قبر الإسكندر .. ماذا تقولين ؟..

ـــ عصفور فى اليد .. وعصفورنا الآن هو وظيفتك فى الجامعة ..

وعلا صوتها فى حسرة :

ـــ فلوس التنقيبات نحن أولى بها ..

ـــ لا أنفق من جيبى ؟..

ـــ لو أنك انشغلت بعمل آخر .. فستأخذ عنه أجراً يعيننا على الظروف الصعبة ..

ـــ لم تكن هذه أفكارك ..

ورميتها بنظرة مؤنبة :

ـــ أنا لا أتسلى بالبحث عن الكنز .. أريد وصية الإسكندر ، بها الطلسم الذى ينقذ هذه المدينة من الغرق ..

أطلقت أف طويلة :

ـــ زهقت !

بدت لى عصبية ، وسوداوية المزاج ، وأميل إلى الصمت . ألفت تبدّل مشاعرها فى اللحظة الواحدة . تتكلم ، وتبتسم ، وتحزن ، وتضحك ، وتكتفى بالقرارات التى تتفق مع هواها وما تريده . ثم تسلم نفسها إلى الصمت ، صمت هادئ منفعل ، وتميل إلى العزلة . أشعر أنه تحت هذه

الملامح الساكنة شيئاً لا أفهمه ، شيئاً يخالف ما أراه ، وأحيا معه . أحاول أن أدفعها إلى الكلام ، لكنها تظل على صمتها الهادئ ، المتوتر . تثق أنى أسئ فهمها . لم نعد نتكلم حتى فى المرات القليلة التى نجلس فيها على مائدة الطعام . أحاول أن ألتقط طرف خيط حوار . ترد بنعم أو لا ، أو بكلمة مدغمة ، أو بإيماءة ..

فكرت فى أن أمسك ذراعها ، أهزه ، وأصرخ فيها أنها زوجتى ، وأنها يجب أن تنفذ أوامرى ، وتتبعنى إلى آخر الدنيا ..

سرت فى شارع بور سعيد . يهبنى طريق الكورنيش الموازى ــ على اليسار ــ إحساساً بالألفة . ملت إلى شارع المشير أحمد إسماعيل ، المفضى إلى ميدان سيدى جابر . أمامى محطة القطار ببنائها المشابه لمبانى المطارات . الواجهة ذات الطابق الواحد ، والنوافذ الحديدية ، والباب العريض ، فى نهاية طرقته المستطيلة باب أضيق ، يبين عن أرصفة القطارات .

فاجأتنى نظرات الأولاد المتطلعة ، وهمساتهم ، واتجاه أصابعهم ناحيتى ..

أدركت أنى كنت أكلم نفسى . أتخيل مواقف ، وأسأل ، وأخمن الجواب ، وأرد على ملاحظاتها . تجاوز ملامحها جدران الشقة . تلح على مخيلتى فى انفرادى بنفسى ، ووقوفى فى المدرج ، وجلوسى فى المكتب ، ومع زملائى ، وانغماسى فى الزحام . طالعتنى حتى فى المرآة المواجهة لكرسى الحلاقة فى دكان عم عبد السلام ..

أسرعت فى خطواتى ، فلا يقدم الأولاد على ما يؤذينى ..

الفصل الرابع عشر

خلفت مبنى الأتيلييه بشارع فيكتور باسيلى ، ومضيت في اتجاه ميدان الخرطوم ..

لا أشارك فى نشاط الأتيلييه ، فهو ــ كما تقول تسميته ــ للفنانين والكتاب ، وإن نشأت بينى وبين أعضاء فيه صداقات أحرص عليها . أحب طابعه المعمارى ، ربما لأنه أنشئ فى ١٩٣٥ داخل فيلا كرم ، بجهود محمد ناجى وأوسكار تيرنى وأندريه ساسون وسكاليت ، فنانين من الإسكندرية ، أو عاشوا فيها . الدرجات المفضية إلى صالة واسعة عالية ، من حولها حجرات مفتوحة ، ومغلقة ، والسلم الخشبى يفضى إلى الطابق الثانى .

استأذن جاك شارتييه فى موعد بالمركز الثقافى الفرنسى ..

حددنا موعداً للقائنا أمام قبر الجندى المجهول .

طالعنى بالبدلة الجينز ، والصندل المفتوح ، والكاميرا المدلاة على كتفه . صحبته إلى وسط المدينة . أبطأت

خطواتنا أمام سراى الحقانية ، والكنيسة الإنجيلية ، والنخيـــل السلطانى ، وتمثال محمد على . استغرقنا الحديث ، فواصلنا السير فى شارع شريف ، إلى نهايته ، حتى شـــارع فـــؤاد . البنايات القوطية الطابع ، يعلوها ما يشبه الأبراج المستديرة ، وتقوم شرفاتها على دعامـــات مـــن التماثيـــل الرخاميـــة ، والفجوات المقوسة تزين الجدران ، والأبواب الخشـــبية ذات النقوش ، والأبواب الحديدية المشغولة بالزخارف النباتية .

تحدثت عما أعرفه ، وما أسعفتنى به الذاكرة . أشرت إلى الأماكن التى ينبغـــى أن يصـــورها بعدســـته . وقمـــت بتصويره وسط حركة الميدان . ربما استغرق فـــى تأمـــل موضع وجد فيه ما يثير الدهشة . يحل الصمت ، فلا نتبادل الكلام حتى يعود من استغراقه ..

ملنا ــ بالتعب ــ إلى مبنى الأتيلييـــه . أطـــال تأمـــل المقرنصات والسلالم الخشبية العالية والفسيفساء والقاعـــات الواسعة والظلمة الخافتة ولوحات فـــاروق شـــحاتة وحامـــد عويس وثروت البحر وعصمت داوستاشى ..

تحدث عن مكتشفات البعثة الفرنسية فى المينا الشرقية وأسفل قلعة قايتباى وكوم الدكة والنبى دانيـــال . اقتصـــرت

كلماتى على القبر ، الكنز ، الأمل ، الذى يحمى الإسـكندرية من خطر الابتلاع ..

فاجأنى بالقول :

ــ أنت محب للإسكندرية ..

وأنا أهز كتفى :

ــ أليست مدينتى ؟

ــ هذا صحيح ..

وأحاط صدره بساعديه :

ــ لكنك تحبها كما يحب الشاب فتاته ..

ــ تعبير جميل أوافقك عليه ..

افترقنا عند ناصية شارع فيكتور باسيلى ..

عبرت ميدان الخرطوم . ورائى المسلة بنقوشها البديعة ..

لاحظت ــ للمرة الأولى ــ غياب تمثال نوبار باشا ــ لماذا سماه الناس نوبار باشا المصدّى : هل لأن الصدأ كسا البرونز الذى صنع منه ؟ أو هو تعبير عن رأى أهل الإسكندرية فى شخصية الرجل وماضيه ؟

أعرف أنه خدم ولاة مصر منذ محمد على إلى عباس الثانى ، وأنه أول من ألف وزارة مصرية فى عهد إسماعيل . تكرر تأليفه للوزارة ثلاث مرات ، ثم تركها . فى موضعه الآن تمثال للفلاحة المصرية .

رف طائر تداخل فى جسده الأبيض والأسود ، على قاعدة التمثال ، وطار بعيداً . بدأت الشمس فى الذوبان وراء البناية الهائلة . هبت نسائم شمالية محمّلة برائحة البحر .

كلية الطب . أنشئت فى موقع التل المقابل للميناء الشرقى . كان جزءاً من الحى الملكى

دخلت من البوابة الحديدية الضخمة . أعرف الطريق إلى الطابق الثانى فى المستشفى التابع للكلية ..

ـ هذا الخاتم له فص بلون عينيك ..

ـ لونه أزرق ولون عينى عسلى ..

فاجأتنى الملاحظة . تبينت أنى لم أكن أعرف لون عينيها ..

هذا ما أتوقعه . تنتقص من كل ما أقدمه لها ، أو أعرضه عليها ..

قالت وهى تومئ بذقنها :

ـــ عقدة الكرافتة صغيرة جداً ..

ـــ هذا آخر ما استطعت ..

وفردت صدرى :

ـــ حاولى !

رفعت كتفيها ، ومضت .

أتوقع منها اللوم والاتهام بالتقصير ، والانشغال بموتاى ـــ هكذا تسمى الاكتشافات الأثرية ـــ عن أمور البيت وما يحتاجه .

قالت :

ـــ أنا طبيبة .. وأشفق على نفسى من رائحة تراب الأوراق القديمة ..

ـــ أشمها مثلك ..

ـــ ربما صحتك لا تهمك .. أما أنا فصحتى تهمنى ..

وأشارت فى حسم :

ـــ اقرأ هذه الأوراق فى مكتبك !

احتضنت العناد ، وواصلت البحث . أمضى الوقت فى مطالعة الخرائط ، وقراءة الكتب ، والمجلدات ، والمخطوطات ، وجمع قصاصات الصحف . أدس فى

الدوسيهات كل ماله صلة بالبحث . لابد أن تأتى لحظة ما ، يطلق فيها إنسان ما ، صيحة اكتشاف لما كان سراً . السر لا يظل كذلك إلى مالا نهاية . السير فى الطريق المكتشفة تشى بملامح ، ترفع غلالة وراء غلالة . لا يشغلنى القبر ، ولا الكنوز ، ولا دوىّ الاكتشاف . ما يشغلنى هو الكلمات التى خلّفها الإسكندر بعد رحيله . الكلمات التى قد تغيّر حقائق كثيرة ، وتبدّل نظرتنا إلى معنى الحياة ..

عرفت واحة سيوة ــ فى بعض الأزمنة ــ باسم " سانتاريا " . الاسم معناه " المكان الذى يرقد فيه الإسكندر " . هل تخالف الواحة كل اجتهادات المؤرخين وعلماء الآثار ؟ هل تكون هى التى احتضنت جثمان الإسكندر ؟ باح الإسكندر بسر الطلسم لكاهن المعبد الرئيس ، ثم مضى فى رحلة الموت . ربما سجل الكاهن ما رواه الإسكندر فى موقع ما ، داخل معابد سيوة . الآثار والأطلال قد تبين ــ بعمليات الحفر والتنقيب ــ عن موضع الطلسم .

سرت فى الطريق نفسها التى تقول كتب التاريخ إن الإسكندر سار فيها : زار واحة سيوة . ثم عاد إلى منف من ناحية الواحات البحرية . قدم القرابين للآلهة المصرية . كاد

الإسكندر يموت فى الصحراء بحثاً عن أبيه . كان السؤال يرافقه : هل زيوس كبير آلهة اليونان هو أبوه بالفعل ؟

لم تقتصر إجابة السؤال على بنوة الإسكندر لزيوس ، فهو كذلك ابن آمون كبير آلهة المصريين ..

سيوة القديمة ، تحمل الاسم القديم " شالى " . أشجار النخيل والموالح والزيتون والفاكهة ، والمياه المعدنية والكبريتية ، ومناطق صيد البط والغزلان والطيور المهاجرة . تطل من فوق الجبل على الواحة . قلعة حصينة لها بابان ، أحدهما فى الشمال ، والآخر فى الجنوب . دخلت من البوابة الخشبية المتهالكة . ثمة أمتار قليلة ، متناثرة ، أبقت عليها العاصفة الرعدية الممطرة التى دمرت معظم بناياتها فى عام ١٩٢٦ . لم يعد إلا طريق ترابى متعرج ، على جانبيه أشجار النخيل . المعبد فى نهايته ..

تحصّنت بصفتى العلمية ، فأذن لى مدير المنطقة بأن أزور معابد آمون ، ومعابد الوحى ، ومعبد أم عبيد ، وجبل الموتى .

صعدت على السلالم نفسها التى صعد عليها الإسكندر قبل ألفى سنة . تأملت معبد تنبؤات آمون فوق جبل أغورمى

، وأطلال بيت الكاهن الأكبر ، وبيوت كهنة آمون ، وحجرة تتويج الإسكندر ابناً لآمون ، والبئر المقدسة التى ارتوى منها الإسكندر . مبنى من الحجر الرملى ، وخلف قدس الأقداس . إضافات من الطوب اللبن ، النقوش على الجدران تمثل الإسكندر وهو يقدم القرابين للإله آمون ..

الحسبة بسيطة ، طريفة ، وإن كان من الصعب تصديقها :

الإسكندر ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى البطل الإغريقى هرقل . هرقل هو ابن زيوس كبير آلهة الإغريق . الإسكندر هو ابن زيوس . ولأن آمون اسم مصرى للإله زيوس ، فالإسكندر إذن ابن آمون . آمون ــ فى يقين المصريين ــ ابن حورس ، وابن رع . من ناحية الأم ، ينتهى نسب الإسكندر إلى أخيل بطل الإلياذة ..

لا وثائق تثبت أن الإسكندر هو ابن آمون .

هل ادّعى النبوة مثلما ادّعى نابليون الإسلام ؟

الفصل الخامس عشر

تعددت زياراتى إلى دار الكتب . أصل إلى محطة القاهرة فى قطار التاسعة صباحاً . أتناول إفطارى ــ فولاً وطعمية ــ فى مطعم على ناصية شارع كلوت بك . أسير إلى ميدان العتبة ، ومنه إلى شارع محمد على . أنشغل بتأمل البواكى ودكاكين الزنكوغراف وتجليد الكتب والآلات الموسيقية والموبيليا ، والمطاعم ، والقهاوى الصغيرة ، والشوارع الجانبية ذات السلالم ..

أصعد الدرجات الرخامية فى المبنى ذى الطابع العربى بنقوشه ومقرنصاته ونوافذه المخروطة الخشب . أظل فى قاعة المطالعة ، منذ فتح الأبواب إلى التنبيه بموعد الإغلاق . أطلب كتب العصر اليونانى ، وما يتصل ــ ولو بالتلميح ــ بسيرة الإسكندر . أمضى الساعات بين المجلدات التى يعلوها التراب والرطوبة . أناقش الروايات المختلفة . أبحث عن الدليل لتأكيد كل رواية . ما يغيب عنه الدليل أهمله ، أسقطه

تماماً . لا تشغلنى الحقيقة أو الكذب فى الرواية التاريخية ، إنما الوثيقة وحدها هى ما يهمنى العثور عليه . ما عثرت عليه من وثائق يشى بأن السجلات المعاصرة أرّخت لحياة الإسكندر منذ مولده حتى قهره المرض . ما بقى منها قليل ، وإن حزنت لأن من بين ما ضيعته الأعوام مذكرات كاليستينيس ابن أخى أرسطو ، ومؤرخ الإسكندر الرسمى ..

حياة الإسكندر تناولها العشرات من المؤرخين والدارسين والقادة فى مؤلفاتهم . عنوا بطموحاته ومعاركه وفتوحاته . الأوراق والوثائق لا حصر لها ، فى التراث الشعبى لكل الدول ، فى الآداب الأوروبية والآسيوية ، فى كتب التراث العربى . شغلتنى الوثيقة التى كتبها الإسكندر تلخيصاً لحياته ، لأفكاره وتصوراته بعد حياة حافلة قصيرة . الإسكندر عندى ليس مجرد قصة تاريخية ، ولا سيرة شخص ذى قيمة . انه وثيقة تحمى الإسكندرية بالطلسم الذى كتبه فى رسالته .

لم يكتب الإسكندر رسالته لزمانه ــ لكنه كتبها للعصور التالية إطلاقاً ، للإنسان فى الزمان الذى تكتشف فيه .

* * *

من قراءاتى :

قيل للإسكندر :

ــ ما سرور الدنيا ؟

قال :

ــ الرضا بما رزقت منها ..

قيل :

ــ فما غمّها ؟

قال :

ــ الحرص عليها !

***

صعدت السلالم الرخامية للمتحف اليونانى الرومانى . الحديقة والقاعات الاثنتين والعشرين . تغنينى عن مراجعة الكثير من الآثار فى كوم الشقافة وجبانة اللاتين وكوم الدكة والشاطبى ومصطفى كامل والحضرة والورديان وأسفل قصر رأس التين ، ومناطق الشيخ عبادة والأشمونين وأخميم وأسوان . الأعمدة الإغريقية والتيجان والباب الواسع ، المفتوح ، يبين عن التوابيت الزجاجية والتماثيل . العدد الهائل من قطع الآثار ، أكثر من ٤٠ ألف قطعة من القرن

الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادى ، جعل من النظر ، التأمل ، التدقيق ، أمراً فى غاية الصعوبة . لم أجد ما يعيننى على التقاط طرف الخيط ، وصل البداية بتوقعات اكتشاف المقبرة .

لو أنى تأملت طقوس الموت ، ربما وجدت ما يعيننى على فهم الطقوس التى مر بها الإسكندر عند وفاته .

الإسكندر هو المثل الأعلى لقادة تاريخيين ، تاليين : يوليوس قيصر ، هيراشو نيلسون ، نابليون بونابرت ، يوليسيس جرانت ، جوركى زوكوف ، وغيرهم . حاولوا جميعاً أن يقلدوا سيرة الإسكندر . بلغ ــ على رأس جيوشه ــ حدود المشرق والغرب . كان له أصدقاء ، وكان له أعداء ، واتفق الجميع على أنه كان قائداً عظيماً .

زرت متاحف كثيرة فى مدن العالم ، ومكتبات عامة ، واطلعت على وثائق ومخطوطات . ترددت على المجلس الأعلى للآثار ، ومديرية الآثار الإسلامية ، ومعهد الآثار الغارقة ، والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، والمركز المصرى الفرنسى لدراسة معابد الكرنك ، ومعهد البصريات الطيبى ، ومركز الدراسات الإسكندرانية ، وديوان محافظة

الإسكندرية ، ومكتبة البلدية بشارع منشة ، ومكتبات الجامعة ، ومكتبة المتحف اليونانى الرومانى ، ومكتبة المرسى أبو العباس ، ودار الكتب بباب الخلق ، ودار المحفوظات بالقلعة ، ودار الخرائط الجغرافية ، ومكتبة الدومينكان بشارع مصنع الطرابيش ، ومكتبات المراكز الثقافية .

لاحظ زميلى الدكتور نعمان نجاتى أنى أهملت دراسات المعامل ، وإلقاء المحاضرات ، وتوجيه رسائل الماجستير والدكتوراه ، والمشاركة فى الندوات .

* * *

تابعت أعمال الحفر تحت جامع العطارين ، وجامع النبى دانيال ، والشوارع ما بين محطة الرمل وميدان المنشية ..

هل أخذ جنود نابليون تابوت الإسكندر من جامع العطارين عند انسحابهم من مصر ؟ ذلك ما قاله أهل الإسكندرية ، بعد أن غادر الفرنسيون المدينة ؟ وما صحة الرواية أن جنود الجيش البريطانى وجدوا التابوت فى موقع المستشفى الفرنسى ، وأرسلوه إلى المتحف البريطانى فى لندن ؟

قلت :

ــ أعطونى بطارية أو كبريتاً .

بدت الحفرة التى تشبه بئراً مصمتة . القبر تؤدى إليه سلالم وأقبية ودهاليز وممرات . ألقيت طوبة صغيرة فى قاع الحفرة . لم يرتد صوت ما . حدست أن الحفر لم يكن فى موضعه ، فى موضع ترقبنا لظهور القبر ..

خطط دينوكراتيس Dinocratis لشوارع المدينة ، فهى مستقيمة ، متعامدة ، متقاطعة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب . أقرب إلى لوحة الشطرنج ، وفى الوسط شارعان رئيسيان واسعان ، يمتد الأفقى وهو شارع كانوب ، من باب كانوب فى الشمال الشرقى إلى باب الغرب فى الجنوب الغربى . ويمتد الرأسى ، السيما ، من باب الشمس عند بحيرة مريوط فى الجنوب الشرقى ، إلى باب القمر بالقرب من بداية الجسر الواصل بين الشاطئ وجزيرة فاروس . السوما أو السيما Sema اسم إغريقى معناه " الجثمان الحى ". لم يحدد مؤرخو تلك الفترة موقع المعبد ، ولا موضع القبر بالتالى ، وإن حدد الموضع ــ فيما بعد ــ مؤرخون وكتاب آخرون .

السوما ــ فى ترجيحات كثيرة ــ كانت داخل الحى الملكى . من السلسلة إلى ما بعد ميدان المنشية . وهى ــ فى تقدير سترابون Strabon ــ جزء من القصر الملكى ، فى أشد مواقع المدينة ارتفاعاً ، فالصعود إليه بواسطة سلم حلزونى . وقال زينوبيوس Zenobius إن القبر وسط المدينة . وثمة من حدد القبر عند تقاطع أربعة شوارع رئيسة ، عرضية ، بعيداً عن موقع جامع النبى دانيال ، أسفل كوم الدكة . ثمة حكاية قديمة عن عمليات إزالة فى أنقاض كوم الدكة ، لبناء كنيسة . عثر على كنز ، مغطى بحجم كبير ، عليه نقش . تاريخه ينتسب إلى زمن الإسكندر . ربما القبر فى الموضع نفسه . ليون الإفريقى زار ــ فى روايته ــ قبر الإسكندر ، إلى جانب الكنيسة المرقسية . ثمة رواية أخرى أن القبر بالقرب من كنيسة سان مارك . آخر الشهادات لأخيلوس تاتيوس Achilleus Tatius فى تقاطع طريق كانوب الممتد ما بين شمال المدينة وجنوبها . ثمة أباطرة وقادة زاروا قبر الإسكندر ، بعد مئات الأعوام من وفاته . أول الأباطرة أغسطس (٣٠ ق . م ــ ١٣٤ م) . وضع

على رأسه أكليل ذهب ، ونثر عليه الزهور .. وكاركالا . خلع رداءه وما كان يتزين به ، ووضعه فوق المقبرة ..

المؤكد أن تخطيط الإسكندرية فى العصر الإغريقى ظل قائماً فى العصر الرومانى . أضيفت أحياء جديدة شرقى المدينة ، بديلاً للدمار الذى حاق بالحى الملكى . لم يغير العرب كذلك من تخطيط الإغريق . أبقوا على الشارعين الرئيسين الملتقيين فى وسط المدينة ، والشوارع المستقيمة ، المتقاطعة فى زوايا قائمة ..

هل كان وسط المدينة ، فى زمن الإسكندر ، هو وسط المدينة فى زماننا الحالى ؟

***

اخترت الجلوس فى حلوانى فينوس ، وراء النافذة المطلة على تقاطع شارع النبى دانيال وطريق الحرية . تأملت المكان من وراء انفراجة الستارة الصغيرة البيضاء . أمامى الأرض الصاعدة إلى فندق بيكاديلى ذى الطوابق الثمانية ، فى موازاة الطريق إلى النبى دانيال ومحطة الإسكندرية . فى الناحية المقابلة مبنى جريدة الأهرام . ما يظن أنه شيد فوق قبر الإسكندر ..

ثمة اجتهاد أن القبر فى تقاطع شارع النبى دانيال وطريق الحرية ، خلف مبنى جريدة الأهرام . على عمق ما بين ١٣ و٢٠ متراً . سجل الباحث نظريته فى الشهر العقارى . مبنى تحت الأرض ، تفضى إليه ثلاث سلمات ، ويحيط به أربعة تماثيل . يتوسط القاعة سرير ضخم ، وسد عليه الإسكندر . من حوله كتب وخرائط ومخطوطات ، تضم قوائم بكل ما فى العالم القديم الذى امتلكه ..

اجتهادات أخرى ، أن مسجد ذى القرنين ــ الاحتمال قائم باحتوائه على قبر الإسكندر ــ هو الآن موقع مسجد العمرى ، فى تقاطع شارع سيدى أبى الدرداء وشارع شريف .

أثق أن الطلسم من بين ما خلفه الإسكندر ..

الفصل السادس عشر

لم أتجه إلى البيت فى شارع محمد كريم ..

غادرت الأبواب العالية لمبنى محطة السكة الحديد ذى الطابقين ، يتداخل فيهما اللونان الأبيض والأحمر . الأبواب الحديدية العالية . شيش النوافذ الخشبى بفتحاته العريضة . سرت فى شارع المحطة نحو كوم الدكة . ملت فى ناصية الطريق . على اليسار مبنى مصلحة الضرائب ، يلاصقه المجلس الشعبى المحلى . فى المواجهة مبنى قوات الأمن . يدل على صفته جنديان شاكيا السلاح ، وعربة لورى فارغة ، سدت الباب العريض ، فتحت إحدى ضلفتيه . طالعنى تقاطع شارع سيدى الخباش المرتفع ، وشارع صفية زغلول . واصلت السير فى صفية زغلول . الآثار البطلمية تحت مستوى الأرض . تشى بالمدينة الأولى ، مدينة ما قبل الإسكندر ، وبعده . أخلف سينما أمير ورائى ، وأمضى فى الطريق إلى البحر .

أبطأت خطواتى ، توقفت تماماً ، قبالة إيليت . زاوية التقاء شارعين : قيصر وصفية زغلول . لماذا أطلق اسم القيصر على الشارع الضيق ، الصاعد ؟ هل يتصل الاسم بما كان من إسكندرية البطالمة ؟ هل يتصل بإسكندرية الأعوام الأولى ؟

اكتفيت بالنظرة المتأملة لبداية الشارع . تغيب الشمس فى ظلال البيوت العالية ، المتلاصقة ..

طال وقوفى فى زاوية التقاطعات المجاورة لسينما ريالتو .

عبرت التقاطع إلى مقهى السلطان حسين ، الترابيزات بطول المكان الواسع ، من حولها الكراسى ، والأبواب ذات الضلف الزجاجية ، المفتوحة على حركة الطريق ..

أطلت التأمل . أطرح التوقعات ، وأقيس المسافات . دلتنى القراءات ــ فى دار المحفوظات بقلعة الجبل ــ على ما لم أكن أعرفه . ما قد يمضى بى فى طرق لم أفكر فيها ولا ارتدتها من قبل ..

سحبت كرسياً ، على ناصية شارعى صفية زغلول والسلطان حسين . ربما قبر الإسكندر فى هذه المنطقة ، فى

جانب ، أو زاوية ، أو فى تقاطع الشارعين ، أو تحت بناية قريبة ..

انتزعت نفسى من التأمل ، ومضيت فى طريق جمال عبد الناصر ..

حدائق الشلالات . بين شارعى قنال السويس والسلطان حسين . تضم أجزاء متعددة من سور الإسكندرية اليونانى الرومانى . اقتحمه ، وطوره ، المسلمون بعد الفتح العربى . طابية النحاس ، أو طابية اليهود . ربما لقربها من مقابر اليهود . تقول الرواية التاريخية إن محمد على أنشأها فى هذا الموقع ، بالقرب من البحر ، لإقامة الجنود . خمسة حواصل مستطيلة ، وحاصلين مستعرضين ، والأسقف من الخشب والقبوات البرميلية ..

على ماذا أنشأ محمد على هذه الطابية ؟..

بقايا باب رشيد تضع البداية فى العهد البطلمى . هو أنسب الأماكن لوجود القبر الكنز .

لو أنى الفلكى باشا ، أو لو أنى عشت فى الفترة التى شهدت تنقيباته عن قبر الإسكندر . ربما لما أجهدنى الأمر كما يجهدنى الآن ، لما بدت الطرق مسدودة . كانت المدينة

صغيرة ، والبنايات قليلة ، فمن السهل أن تجرى عمليات الحفر والتنقيبات . غابات البنايات العالية فى طول المدينة وعرضها ، هى صورة الإسكندرية الآن ، وتجعل التنقيبات صعبة ..

كان عدد الشوارع فى المدينة القديمة ثمانية عشر شارعاً ، سبعة منها طولية تبدأ من الشمال إلى الجنوب ، وأحد عشر عرضية ، تمتد من الشرق إلى الغرب ، ومجموع عرضها سبعة أمتار ، ماعدا الشارعين الرئيسين ، عرض كل منهما أربعة عشر متراً ، وكان أغلبها مرصوفاً ..

استطاع الفلكى أن يحدد سور المدينة القديمة خمسة عشر كيلو متراً وثمانية من عشرة ، متعرجة ، بالإضافة إلى امتداد التيمونيوم ــ ستمائة متر ــ مقر إقامة القائد الرومانى ماركوس أنطونيوس . أما المدينة فمساحتها خمسة وتسعة من عشرة فى المائة كيلو متراً . مدينة كاملة ، بها العديد من القصور والمعابد والأفران ومعاصر النبيذ والتماثيل والآبار والمقابر . العرض ما بين واحد وخمسة عشر فى المائة كيلو متراً من ناحية الغرب ، وواحد وأربعة من عشرة فى المائة كيلو متراً من الشرق ، والجزء الأوسط هو الأكبر ، ويصل

إلى واحد وسبعة من عشرة فى المائة كيلو متراً . واستطاع الفلكى أن يحدد موقع الميناء الملكى ، ومبنى التيمونيوم ، ومبنى القيصرون ، والمسرح البطلمى ، والجيمنازيوم ..

أعرف أن جثمان الإسكندر دفن عند تقاطع أكبر شارعين وأعرضهما فى المدينة . قدم الجغرافى استرابونا إلى مصر عام ٢٤ ق . م . شاهد قبر الإسكندر . حدد موقعه فى وسط المدينة بمنطقة " السوما " ، مكان يتميز بالحدائق والأحراش ، وثمة مرتفع عال يطل على المدينة ، يعلوه معبد الإله " التيمونيوم " . لم يكن الموضع مرتفعاً بما يجعله ظاهراً عن مناطق المدينة الأخرى . وضعت علامة جنائزية تشير إلى وجود المقبرة أسفل التل . ظل الشاهد معلماً مهماً ، فهو فى وسط المدينة ، بين تقاطع أكبر شارعين فيها ، وتوالت الأعوام ، فغاب القبر والشاهد . لم يعد أحد يدرى مكانهما على وجه التحديد ، وإن كنت لا أذكر أن شارعاً فى الدنيا توالت عليه الأسماء ، مثلما توالت على طريق جمال عبد الناصر . هو كانوب فى البداية ، ثم كرت الحلقات : المحجة العظمى ، رشيد ، روزيه ، أبو قير ، فؤاد ، طريق الحرية ، ثم طريق جمال عبد الناصر .

طلعت التنقيبات برأس الإسكندر من تحت مبنى معهد الموسيقا العربية ، تمثال من الرخام الأبيض ، وظهر معبد للإله " سنورن " . كما كشف تحت مبنى وكالة كوك للسياحة عن بقايا معبد " سيرابيس " ، ولوحات تأسيس المعبد ، ولوحات من الذهب ..

علا الهاجس فى داخلى أن القبر فى موضع بالشارع : دائرة الأمير عمر طوسون ؟ نادى محمد على ؟ مقام سيدى المتولى ؟ مسرح سيد درويش ؟ المتحف اليونانى الرومانى ؟ مبنى المحافظة ؟ عمارة كوتسيكا ؟..

مرتفعات الشلالات ، الأشجار الضخمة ، وانحدار المياه من مرتفع عال إلى مجرى منخفض . تطل على المستشفى الأميرى ، والميدان الفسيح ، ومدافن الكاثوليك ، ومدرسة محمد على الصناعية ، والاستاد ، والنادى الأولمبى ، ووابور المياه ..

موقع حدائق الشلالات بالقرب من المقابر ، يشى بأن موضع الحدائق ــ عندما أنشئت فى عام ١٩٠٩ ــ ربما كان موضعاً للمقابر ، وربما كان موضعاً لمقابر البطالمة . وربما

كان قبر الإسكندر هو بداية تحول المنطقة إلى صفتها الحالية ..

لم يعد أمامى إلاّ أن أقتفى آثار الإسكندر . اتسعت مساحة إمبراطوريته . بلغت ما يزيد على مليون ميل مربع ، ضمّت الإغريق والعرب والعبرانيين والأرمن والفرس والأفغان والهنود ، وشعوب أخرى كثيرة بامتداد العالم القديم . علىّ أن أصل إلى ما أستطيع الوصول إليه ، فى داخل مصر وخارجها ، فى الأماكن القريبة والنائية ، تحت الأرض ، أو فى الواحات المنسية . دونت المواد المتصلة بحياة الإسكندر ، منذ ميلاده إلى وفاته . جمعت ما استطعت جمعه من أوراق تناقش آراءه وتصرفاته وحروبه ، ما لم أستطع جمعه تركت للأيام مهمة أن أصل إليه ..

حين بلغ الهند ، ألقى رمحه فى الأرض ، وقال :

ـــ آسيا حقى بهذا الرمح ..

أخذوه إلى الشجرة المقدسة التى تتكلم كل لغات الأرض . لم يتأثر لقول الشجرة إنه سيموت وهو صغير .

الفصل السابع عشر

خلفت محطة مصر ورائى ..

ترددت : هل أمضى فى شارع ابن الخطاب ، أواصل السير إلى غربال ؟ أو أتجه ــ يميناً ــ إلى وسط البلد ؟.

قبر الإسكندر ــ فى هذه اللحظة ــ موجود فى مكان ما لا أعرفه فى داخل الإسكندرية ، فى داخل الكيلو مترات الستة والعشرين المربعة التى تشكل مساحة داخل المدينة . الاحتمال الأقل ترجيحاً أن يكون القبر خارج هذه المساحة ..

شارع راغب باشا : الهواء يعبق برائحة القديم . مناشر الغسيل فى الشرفات ، تتطوح فيها الملابس ، وتتساقط المياه . البيوت المتلاصقة ، أكل النشع واجهاتها ، وصنعت تقشرات الطلاء أشكالاً وتكوينات ، وأكل الصدأ قضبان الحديد المتشابكة فى النوافذ . علقت عليها ، ووصلت بينها ، إعلانات عن مستوصفات ودروس خصوصية وبضائع بالتقسيط . وثمة دكاكين اللحم والخضار والفاكهة والأفران البلدية والإفرنجية والبقالة والفول والفلافل والصيدليات

والسباكة وتصليح الأحذية ووبوابير الجاز . تناثرت فى الأرض كومات الزبالة ، والمياه الآسنة ، وبقايا السمك والخضار ، وقشر الموز ، ومزق الأوراق ، والبراز . اختلطت روائح الكفتة والكباب والدجاج المشوى والصنان والعطن .

ملت ــ فى طريق العودة ــ بزاوية حادة ــ إلى يسار مبنى المحطة . صعدت فى الشارع المزدحم بالسيارات والمارة ..

اتجهت ــ فى تقاطع الطرق ــ إلى شارع صفية زغلول : سينما أمير وطريق جمال عبد الناصر وسينما مترو والمكتبات وخطوط الطيران وسينما ريالتو والبازارات والمطاعم والصيدليات ومحال التصوير والأفران ودكاكين الملابس والأحذية والحقائب والنظارات والساعات والأثاثات المعدنية والسجاد والأدوات الكهربائية ..

نافذة الحجرة ٣١٩ بفندق متروبول .

تطل على التقاء شارعى سعد زغلول وصفية زغلول . فى المواجهة شارع شكور ، على ناصيته سور خشبى يضم بقايا سينما ماجستيك . البرج الدائرى المرتفع هو آخر ما

تبقى من السينما بعد احتراقها . تحولت إلى خرابة ، سورت بالأفيشات عن أفلام ومسرحيات وبضائع . عمليات الحفر ــ عند إعادة البناء ــ وشت بوجود ما أغمض عينى ، وأفتحهما ، على تصوره . تعالى الرنين الأجوف . ظهرت بقايا معبد القيصرون ، هو المعبد الذى بنته كليوباترة لمارك أنطونيو . اختفى من الأنقاض ما يبدو أنه تعرض للسرقة من الكنوز ، والقطع الذهبية والفضية ، وتماثيل البرونز . حتى المسلتين اللتين كانتا أمام مدخله ، نقلتا من الإسكندرية ــ فى عهد محمد على ــ واحدة إلى ضفة نهر التايمز بلندن ، والثانية إلى سنترال بارك بنيويورك . الاستنتاج صعب ــ ولعله مستحيل ــ أن تنقل كليوباترة قبر الإسكندر إلى معبد شيدته لحبيبها ، إلى جانب أن كليوباترة لم تستكمل بناء المعبد . أكمله ــ فيما بعد ــ الإمبراطور أوغسطس ، وأقام المسلتين أمامه .

على الناصية المقابلة بنك الإسكندرية ، بداية لصف من الدكاكين ، بارى ، نظارات محمد ناجى ، صالون رينيه ، السيدة الجميلة ، أمامها دورة مياه عمومية . ثم انحناءة الطريق إلى شارع صفية زغلول ..

ربما كان صحيحاً . وربما تعللت بحجة أنى أريد أن أخلو إلى أبحاثى ، بعيداً عن مضايقاتها . بدا لى الفندق الذى طالما سرت ــ أو وقفت ــ أمامه (أشترى الصحف الأجنبية من البائع لصق الجدار) دون أن أنظر ناحيته . صعدت السلمات الرخامية إلى كاونتر الاستقبال ..

قال الموظف وهو يدفع لى ببطاقة البيانات :

ــ كم يوم ؟

وأنا أحول نظرتى ، فلا أظهر اهتماماً :

ــ يوم .. أو شهر ..

هذه المرأة لا شأن لها بدراساتى ولا أبحاثى ، ولا تنقيباتى ، ولا بالإسكندر . مشاعرى لا تعنى شيئاً فى نظرها . ما يهمها أن تحيا اللحظة غير موصولة بما سبق ، وما لحق . ترتدى الثياب الجميلة فى الخروج ، وتنزعها عند النوم . تصر على أن تأخذ حقوقها كزوجة ، فلا أجد فى عناقها إلا برودة الثلج . ترفض أن تقوم بالكنس والمسح والتنفيض والغسيل والطبخ . هى طبيبة . هذا ــ فى تقديرها ــ عمل خادم . عيناى المفتوحتان تتأملان التكوينات التى يصنعها تداخل الضوء والظلال . أنصت إلى تنفس نجلاء

المنتظم . يضايقنى من نفسى أنى كنت أستجيب لما تطلبه ، لنزواتها الصغيرة . حتى صور الزفاف وافقت أن نترك لها بحرى إلى أستوديو دنيا بالنبى دانيال . استوديوهات التصوير فى بحرى كثيرة . أصرت نجلاء أن تقلنا إلى أستوديو دنيا سيارة زميلى الدكتور نعمان نجاتى ..

تحولت مهمتى من القراءة والبحث ومناقشة الاحتمالات والتنقيب ، إلى مجرد الحرص على كسب ودها . لا تترك لى فرصة الخلو إلى كتبى وأوراقى ، ولا إلى كتبى ..

لم أعد أتردد على المكتبات ، ولا المتاحف ..

هذه المرأة : ماذا تريد منى ؟..

قالت :

ــ هل تتصور أنى باردة .. مثلك ؟

ــ من تكلم عن البرود ؟..

ــ تصرفاتك !..

ــ كل ما فى الأمر أنى مشغول بأبحاثى ..

ــ اعتبرنى ضمن أبحاثك ، واعتن بى ..

ــ هل ينقصك شئ ؟..

ــ أنا زوجة .. ولى حقوقى ..

ـــ حقوق الزوجة لا تقتصر على الـــ ..

وسكت ..

أقسمت ألا تبقى فى البيت ، مهما أصالحها ، أو أقدم لها من مغريات ..

تواصلت اللحظات التى يغرق كل منا فى نفسه . لم أعد أنظر إليها وهى نائمة . لم أعد أتوقع أن تبادلنى علاقة من أى نوع . حتى الكلمات العادية ، مما يتبادله الناس فى الأوقات العادية ، غابت عن حياتنا ، لا أخذ ولا عطاء . حاولت ، فأخفقت .

لم أقو ـــ ذات ليلة ـــ على كبح رغبتى . مددت يدى تحت قميص النوم الأسود أحاول تلمس بطنها . فاجأتنى بنتر يدى . عاودت الميل ناحيتها . مسدت رأسها بفمى ، لامست جبهتها وأذنها . هزت رأسها لتبعدنى . تلاشت الرغبة تماماً .

هذه المرأة لا تحبنى . هذه المرأة تكرهنى . أنا أفلسف ما لا يحتاج إلى الفلسفة . الصدود فى نظراتها وتصرفاتها يتسلل بالعجز إلى داخلى . أثق أنى صحيح البدن والعافية .

الصدود واجه توالى المحاولات . سكتت القدرة تماماً ، فأزمعت التوقف ..

قال لى عم عبد السلام :

ـــ أحل الله الطلاق ..

التقطت ومضة استياء فى ملامحه . حدست أنه يرفض استكانتى لصورة العلاقة بينى وبين نجلاء ، وما تحمله لى من عذاب لا نهاية له ..

الطلاق !..

لم تدر لى الفكرة ببال ، ولا تصورتها . لا أتصورها . أميل إلى ألفة الناس والأشياء ، وأرفض التغيير . لو أن التنغيص حالة مستمرة ربما أسلمت التفكير فى ما لا أتصوره . لحظات الدفء تفصل ما قبل وما بعد . تظل متاحة ، فأتوق إليها ..

لم أعد أكتم عنه أسرارى الخاصة ، ما يدور بينى وبين نجلاء فى داخل الشقة ، فى حجرة النوم . هو مثل أبى بتقدمه فى السن والعشرة الطويلة . يدفعنى إلى الحكى ما يبديه من تأثر ، وملاحظات لتغيير ما ينبغى تغييره ..

أوضحت لها أنها ضايقتنى بما يكفى . لم أقسم ، ولا ثرت بالغضب . لم أعد أشعر بأية عاطفة نحوها . كانت فى حياتى ، ثم لم تعد موجودة . غابت حتى عن المعنى ..

حولت السرير المجاور إلى طاولة أفرد عليها خرائطى وأوراقى . أعود من الكلية إليها ، أو أتابع عمليات المسح والتنقيب ، أو أجلس فى الكرسى خلف النافذة الزجاجية بمساحة واجهة البهو الواسع . أتابع حركة الطريق ، وأتأمل الحياة فى داخل الفندق : النزلاء المتناثرين فى الصالونات ذات التصميمات الحديثة ، يتكررون فى المرآة الضخمة بطول الجدار . وثمة الأرضية الباركيه ، والنجف الكريستال المتدلى من السقف ، واللوحات الزيتية المنسوخة عن لوحات لفنانين عالميين ، والطابع الهيلينى فى النقوش الممتدة أعلى الجدران ، والمصعد الحديدى القديم يذكرنى بمداخل البنايات فى الشوارع ذات الملامح الأوروبية ..

مهمتى أن أتعرف إلى ما كان عليه أحياء الإسكندرية الخمسة ..

تعددت التنقيبات فى عمود السوارى ، ومعبد السرابيوم ، وتحت قلعة قايتباى . أتنقل بين السقالات وكومات الرمل

والزلط والمهندسين والعمال والفواعلية والأوامر والتحذيرات والحفر وماكينات اللحام والمثاقب وهدير الأوناش وطقطقة الألواح الخشبية ..

لم أصادف الرفض الذى توقعته حين بدأت التنقيب فى مقابر الروم الكاثوليك بالشاطبى . رائحة امتزاج الملح واليود والأعشاب والطحالب تترامى وراء البنايات العالية ، وتقاطعات الشوارع المفضية إلى البحر ..

الترجيح أن يكون القبر داخل المدافن المطلة عى شارع قناة السويس . رحلت الجاليات الأجنبية ، فلم يعد الموتى يذكرون بالزيارة . ما قرأته أن مقابر الشاطبى تعود إلى عصر البطالسة الأول . ما توصلت إليه من تقليب الاجتهادات أن المقابر تعود إلى أيام الإسكندر ، فمن المحتمل إذن أن تضم قبر بانى المدينة ..

خمنت أن الباب الخشبى المتهرئ ، المغلق ، يفضى إلى قبو . واصل العمال الحفر . عثروا على قطع من الرخام : تكوينات ، وأشكال صغيرة وكبيرة ، وأقدام ، وأياد ، وأطباق نقشت عليها كتابات بطلمية . قرأتها . لم تتحدث عن الإسكندر ، وإنما عرضت للعهود التالية .

***

محطة الرمل ..

تطالعنى بمشهد أقرب إلى اللوحة التجريدية ، يتغير بتغير رؤيتى له . المحطة ، يحيط بها المبنى الخشبى المستدير ، والقضبان ، والترام ذى الطابقين ، وأفيشات الأفلام ، ولافتات النيون ، ودور السينما ، ومحال الطعام والحلوى ، وباعة اللب والفستق والفريسكا وماسحو الأحذية ، وأكشاك الصحف ، والمقاهى ، والبنايات ذات النسق الإيطالى ، غطتها لافتات الأطباء والمحامين والشركات التجارية . حتى الهواء الذى يهب من ناحية البحر ، يتغير بتغيّر ما يهمنى ، وما إذا كنت أقصد باعة الصحف ، أو أسير بلا هدف ، أو أجتر مضايقات نجلاء ، أو أبحث عن الشاغل الذى وهبته حياتى ..

لم تحدد الاجتهادات التى ترجح وجود قبر الإسكندر تحت ميدان محطة الرمل ، موضع القبر على وجه التحديد . هل هو وسط الميدان ، قضبان الترام ، والشارع فى الاتجاهين ؟ أو أنه تحت صف البنايات على اليمين ، بداية من سينما ستراند إلى ما بعد نادى ضباط الشرطة ، أو صف

البنايات المقابلة ، من منظمة الصحة العالمية إلى جامع القائد إبراهيم ؟ أو هو فى امتدادات الميدان : شارع صفية زغلول ، وشارع كلية الطب ، حتى السلطان حسين ، أو أنه يمضى فى اتجاه الترام إلى داخل الرمل ، أو يلامس ــ على اليسار ــ قاع البحر ..

فطنت ــ وأنا أتلفت فى ابتعادى عن حلوانى أتينيوس ــ إلى شعار الإسكندرية ، ورسم الإسكندر المحفور على لافتة المطعم الملحق : هل للحفر صلة بحياة الإسكندر ؟ بموضع المطعم ، أو بالشارع الذى يطل عليه ؟

قال لى أستاذ الآثار الدكتور رائف بهجت :

ــ احتمالات كثيرة أن يكون القبر فى منطقة الميدان ..

ثمة كشف للبعثة الفرنسية ــ فى موقع الميدان ــ لستة هياكل عظمية كاملة . لم يتحدد تاريخها ، وإن لم تكن إسلامية لأنها لا تتجه إلى القبلة . وثمة عالم فرنسى ــ لا يحضرنى الآن اسمه ــ أجرى عمليات حفر فى جوانب من الميدان . شغله البحث عن معبد قيصرون ابن كليوباترة . ما أثق أنه حديث خرافة أن الإسكندر تزوج كليوباترة ، فأنجبا قيصرون ..

رحل المقدونى عن الإسكندرية حياً ، وعاد إليها ميتاً دون أن تظهر كليوباترة فى حياة المصريين ..

ما يشغلنى هو قبر الإسكندر ..

كان موقع القبر معروفاً ، ومعلنا ، حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى .

ماذا جرى ؟

الفصل الثامن عشر

سأل جنكيزخان أحد قواده :

ــ ماهى أقصى مشاعر السعادة للإنسان ؟..

قال القائد :

ــ جواد سريع يخرج به إلى السهول الخضر ، وعلى ساعده باز يطير ويعود إليه بثمار صيده ..

قال جنكيزخان فى عدم رضا :

ــ كلا .. بل السعادة الحقيقية هى أن تقضى على عدوك ، وتدمره تماماً ، حتى يجثو خاشعاً يلتمس الرحمة . لكنك تستولى على كل ما يمتلك ، فلا تأخذك شفقة حتى بنسائه وأطفاله الذين يلتفون حوله باكين !

اسمه تيموجين . وكان أكبر أبناء شيخ قبيلة صغيرة من فرسان الفلاة . دنا أجل الشيخ وهو فى خيام أعدائه ، وكان شاغله السؤال : هل قضى على قبيلته أن تتفتت وتندثر فى غياب القائد الذى يحكمها ؟..

لكن تيموجين الصغير رفض هواجس أبيه . نعم ، هو لم يغادر أعوام الصبا ، لكنه أيضاً هو الإبن الأكبر الذى

سيخلف أباه فى حكم القبيلة ، ولابد أن يحفظ عليها تماسكها وتواصل حياتها ..

أعلن تيموجين أنه لن يخضع للقبائل الأخرى ، وانه سيقود قبيلته إلى انتصارات لم تحققها من قبل . وبدأ فى المناوشة فعلاً : عمليات صغيرة أراد بها التدليل على قوته . وألقى القبض على المشاغب الصغير . وإدراكا منهم لحداثة سنه ، وضآلة قدره ، فقد اكتفوا بشد وثاقه إلى نير وضع على كتفيه ، ومد ذراعاه على النير ، فلا يستطيع وقوفاً ولا حركة ولا تخلصاً . ثم انصرفوا إلى أمورهم .. لكن الصبى استطاع فك وثاقه ، واختفى ، ليحاول ــ من جديد ــ جمع الأعوان .

استطاع تيموجين ــ بالدهاء والقوة ــ أن يبسط سيطرته على الكثير من المدن والبلاد ، ما بين بحر الصين شرقاً ، والبحر الأسود غرباً . أطلق عليه أعوانه " جنكيزخان " ــ ومعناها الخان الأعظم ، أو الخان الذى وصلت قواته من أقصى اليابس إلى أول المحيط ..

لم يعدم جنكيزخان النصيحة . بذلها حكماء اصطفاهم ، وقرّبهم إلى مجالسه . قال له حكيم صينى :

ـــ لقد غزوت إمبراطورية وأنت على صهوة جوادك ، لكنك لن تستطيع أن تحكمها من فوق جوادك . معنى النصيحة أن القوة قد تفرض السيطرة ، لكن الحكم يحتاج إلى السياسة والفكر والتبصر والرغبة فى البناء ..

وقال حكيم صينى آخر ، سأله جنكيزخان النصيحة :

ـــ النصح عندى أن تحيا فى سلام ، وأن تكف عن قتل الناس بلا سبب !

لكن كل النصائح اصطدمت بالنفس التى لم تعد تعرف غير السيطرة والقتل والتدمير . وربما هز جنكيزخان رأسه إعجاباً ، لكنه واصل إصدار أوامره بالمزيد من التوسع . وقال لأعوانه :

ـــ التاجر يعتمد على بضاعته لتحقيق المكسب . أما نحن فنعتمد على شيئين : الدهاء والقوة ..

أثق أن شغف جنكيزخان هو القتل والتدمير والسلب ، وبسط سيطرته على آخر ما يستطيع جواده ـــ وجياد أتباعه ـــ الوصول إليه .

لم يكن بلا فلسفة ، وإنما كان تعبيراً عن حلم قديم كوّن الرجل تفصيلاته منذ صباه ، وعاش فيها ، وحرص على أن

ينفذها . وعندما أفلح فى تكوين أول مجموعة من الأتباع ، خطب فيهم قائلاً :

ـ إذا كان زعم الحكماء الشيوخ أن القلوب والعقول يستحيل فى تناقضها أن تجمع فى جسد واحد ، فإنى سأنذر حياتى لتكذيب ذلك الزعم ، وسأجمع فى شخصى كل أنحاء العالم !

وقال مؤرخ فارسى :

ـ ألم يصل إلى أسماعكم أن عصابة من الرجال ، موطنها عند مشرق الشمس ، قد نهبت الأرض نهباً على ظهور جيادها ، حتى طرقت أبواب قزوين ؟.. لقد نشروا الدمار بين الشعوب ، وبذروا الهلاك على طول الطريق ، ثم عادوا سالمين يحملون الغنائم إلى سيدهم .. وكل ذلك تم فى أقل من عامين " ..

هل هى العبقرية ، أو الظروف ، أو أن السماء كانت تمده بالعون كما ظن أتباعه ؟.. رغبة المقاتلين فى العمل تحت إمرة رجل قوى ، كانت وراء تزايد أتباع جنكيزخان كالجراد ، ينتشرون ـ بجيادهم وسيوفهم ـ فى أرض الله الواسعة . يقتلون ، ويبيدون ، ويحرقون ، فيدين لهم مابين

حدود الصين على شاطئ المحيط الهادى شرقاً إلى قلب أوروبا ، وإلى عواصم العالم الإسلامى غرباً ..

قسمت إمبراطورية جنكيزخان ــ بعد رحيله ــ بين أبنائه الأربعة ، بينما قسّمت إمبراطورية الإسكندر بين قادته .

***

هل كانت للإسكندر هوايات شخصية ؟ هل كان يحب النساء ؟ هل أقام علاقات جنسية ؟..

لم تكن الشهوة الجنسية تشغل الإسكندر . ما كان يشغله هو تحقيق طموحاته فى التوسع

تزوج ابنة عدوه داريوس ..

الانحرافات الجنسية سمة الحياة . السحاق بين النساء المتزوجات ، والشذوذ الجنسى بين الرجال ، ربما لتقليل الزيادة السكانية الهائلة ، أو لانشغال سيدات الأسر المالكة بالسلطة ، أو لاستبعادهن من الحياة الاجتماعية لأزواجهن ، وربما لأن الاختلاط العادى لم يكن متاحاً لكل طبقات المجتمع ، وإن انغمس الجميع فى الطعام ، والشراب ،

والمساخر ، واللهو ، وسباق الخيل ، واستعراضاتها ، واقتناء المحظيات ، وموسيقا الهارب والناى والمزمار ..

إجماع الروايات التاريخية أن الإسكندر أفاد من ليونيداس فى اكتساب الخشونة ، والبنية القوية ، المفتولة العضلات . لكن بشرته البيضاء ، الناعمة ، وقسمات وجهه المنمنمة التقاطيع ، وميله العفوى برأسه على أحد كتفيه ، وإرسال نظرات الدعة الفاترة إلى محدثه . كان فيليب شاذاً ، ومارس العلاقات الشاذة فى حياته ، لكنه حرص ــ مثل الغانية التى تمنع ابنتها من ممارسة مهنتها ــ على أن يظل الإسكندر صحيح البدن والصحة النفسية ..

أراده رجلاً كامل الرجولة ..

الفصل التاسع عشر

شارع محرم بك ..

المخابز البلدى والإفرنجى ، ودكاكين البقالة ، والمقاهى ، ومطاعم الفول والفلافل ، والمكتبات ، والمطابع الصغيرة ، وباعة الكتب القديمة المصفوفة لصق الجدران ، وباعة الصحف ، وعربات الفاكهة والسندوتشات على نواصى الطرق الفرعية ، والمارة والسيارات وعربات الحنطور والكارو يحاذرون اتجاهى الترام فى الشارع الضيق ، والقضبان تضوى فى ألق الشمس ..

كنت أعجب لأن مدرستى الابتدائية ، ثم مدرستى الثانوية ، كانت فى الإسكندرية ، بينما أقيم فى بحرى . مشوار أقطعه ــ بالترام ــ كل يوم . ثم علمت ــ فيما بعد ــ أن معظم المدارس تجمعت فى محرم بك . عدد المدارس الثانوية بلغ سبع مدارس من اثنتى عشرة مدرسة بالإسكندرية كلها ..

ملت إلى شارع منشة : مدرسة الإسكندرية الثانوية ، مكتبة البلدية ، متحف الفن الحديث ، الكوبرى ، إستاد البلدية . ترددت فى أن أواصل السير إلى وابور المياه ، أو إلى شارع جمال عبد الناصر ..

ناديت على تاكسى ..

لم أعد أحب الدخول إلى حجرة نومى ، ولم تعد العودة إلى البيت تهمنى ..

نغّصت علىّ الحياة ..

اعتدت ذهابها فى النوم بمجرد استلقائها على السرير ..

تصر ـــ إذا أردت عناقها ـــ أن يتم لقاؤنا فى الظلام . ترفض أن تنزع ثوبها ، أو أن أقترب منها ، قبل أن أطفئ النور ..

قدمت لى شفتيها كأنها تؤدى واجباً . سقطت الرغبة من داخلى . بدا أن الرغبة سقطت من داخلها كذلك . لم تكن ترفض العلاقة ، لكن تصرفاتها كانت تشى بالرفض ..

هل أحبتنى فتزوجتنى ، أو أنها تزوجتنى ، لأنه لابد للمرأة ـــ حتى لو كانت طبيبة ـــ أن تتزوج ؟..

قالت :

ــ أنت لم تجبرنى على الزواج منك ..

رمقتها بنظرة متسائلة :

ــ فلماذا هذه النبرة كأنها الندم ؟

يتكرر إبداء الملاحظات والمشاجرات والخصام والصلح الذى يستمر أياماً قليلة .

ألاحظ أن مشاعرى تتبدل فى الصباح . يجرى بينى وبينها ما يجرى بين الزوجين . تبدو لحظات الهناءة كأنها طوت صفحات الأيام السابقة . يفاجئنى التبدّل الذى لا أعرف باعثه . ربما قبل أن أترك السرير ، أو فى لحظات التهيؤ لمغادرة البيت ..

* * *

ما الذى دفع أ . م . فورستر إلى التيقن أن موضع المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الإسكندر تقاطع شارع السوما مع الشارع الكانوبى .

قادة البطالمة الأوائل عنوا بأن يدفن الجثمان بالقرب من السوما . ربما لأنهم أرادوا أن يكونوا بالقرب من الإسكندر . المسار نفسه لشارع النبى دانيال . يبدأ من ميناء البحيرة ، ويمتد شمالاً حتى البحر . تقاطع السوما والكانوبى

، فى مواجهة جامع النبى دانيال . هذا هو موقع القبر ، كما كتب فورستر فى ثقة . ربما تلك الثقة هى التى أملت على الباحثين عن قبر الإسكندر أن يجروا أبحاثهم فى هذه المنطقة ..؟

هل يوجد القبر فى داخل مسجد النبى دانيال ؟

ثمة اجتهادات أشارت إلى أن جامع النبى دانيال ظهر فى موضع ضريح الإسكندر . قرأت أنه أحد أتباع الإمام الشافعى ، استوطن الإسكندرية ، ومات فيها .

أعرف أن النبى دانيال هو أحد العلماء الذين وفدوا من المغرب ، واستوطنوا الإسكندرية . شبيه بما فعله الطرطوشى والشاذلى والقبارى وسواهم من العلماء المغاربة الذين ضوّعوا فى المدينة أريجها الروحى . أجرى الفلكى حفائر أسفل الجامع ، وأسفل الشارع نفسه . عثر على كومات حجارة ، وقطع أعمدة بتأثير التدمير الذى قوّض بنايات المنطقة فيما شمل من بنايات المدينة .

لعل القبر فى جانب من الشارع الطولى الممتد من بوابة القمر إلى بوابة الشمس ، شارع النبى دانيال . رآه قنصل لروسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، من خلال

ثقب فى باب خشبى ، لصق جامع النبى دانيال . جسد إنسان ، داخل قفص ذهبى ، على رأسه تاج ، ووضعه نصف انحناءة على كرسى مرتفع أشبه فى فخامته بكرسى العرش ..

إن لم يكن هذا هو قبر الإسكندر ، فماذا يكون ؟..

لابد أنه هو قبر الإسكندر : السحر ، والأسطورة ، والطلسم ..

دخلت من الباب الخلفى لديليس . خرجت من الباب المفضى إلى شارع سعد زغلول . سرت مع ما خمنت أنه السور الضخم ، يبدأ أسفل محطة الرمل ، وينتهى فى شارع النبى دانيال . المركز الثقافى الفرنسى ، وجامع النبى دانيال ، وجامع عبد الرزاق ، والدكاكين المتلاصقة على الجانبين : المكتبات ، وباعة الحلوى ، والسجائر ، والملابس ، والأحذية ، وحقائب السيدات ، والأدوات الكهربائية ..

هل هى مصادفة ، أو بتدبير معمارى : الكنيسة المرقسية تولى ظهرها للمعبد اليهودى ، تخاصمه . الأقباط المصريون يرفضون حيل السياسة . دم المسيح على أجيال اليهود حتى يعود المسيح . الباب الخلفى للكنيسة المرقسية

يجاوره بناية قديمة . فى طابقها الأرضى دكاكين أقمشة ، تعلوها الرابطة المرقسية . يقابلها البوابة الهائلة للمعبد اليهودى . تفضى إلى ساحة واسعة ، مبلطة ، يطل عليها المعبد بنوافذه ، وأبوابه المغلقة ، وغموضه المريب ..

السور الحجرى المرتفع يحيط بمشروعات الآثار فى بقايا كوم الدكة . عندما بدأ العمال فى رفع الرمال والأتربة عن الباب الخشبى الضخم ، المتآكل ، توقعت أن يكون هذا هو باب المقبرة . طالعتنى السراديب ــ تحت الأرض ــ بلا انتهاء . عشرات التوابيت والمومياوات والتماثيل الجرانيتية والذهبية ، والتماثيل الصغيرة ، أشبه بأوشابتى الفراعنة . التماثيل التى تغنى الميت عن العمل فى دنياه الآخرة ..

مدينة كليوباترة وأنطونيو ..

هذا هو الاسم الذى أطلقه العلماء على المنطقة الملأى بالآثار ..

قال لى عم عبد السلام :

ــ حين دخل الرسول الكعبة هدم ما كان بها من تماثيل ..

ـــ كان العرب يعبدونها . أما هذه التماثيل فلا يعبدها أحد ..

خاقان البحرين رسم أن تبنى له ـــ عند الموت ـــ دار كبيرة ، فيها عشرون بيتاً . يحفر فى كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة ، فتصير مثل الكحل ، وتفرش فيه ، ويجرى تحت الدار نهر كبير ، تتدفق مياهه بسرعة ، وتحول مياه النهر الكبير لتجرى فوقه . يصبح القبر بينهما . لا يصل إليه أنس ولا شيطان ولا دود . فإذا دفن الخاقان ضربت أعناق الذين دفنوه ، حتى لا يعرف أحد موضع قبره بين البيوت العشرين ..

من أين استوحى خاقان الخزر هذه الطريقة العجيبة ؟ هل قرأ تاريخ الإسكندر ، فنقل عنه ؟..

أظهرت تعصبى لرأيى بأن عصابات تهريب الآثار لو أنها وصلت إلى قبر الإسكندر ، فستهربه إلى الخارج . ليس تمثالاً صغيراً ـــ فى رأيهم ـــ ولا هو مما يسهل نقله ، فكيف سرقوا رأس تمثال رمسيس الثانى وتاجه ، وهو يزن طنا ؟!..

* * *

لم أكن أغادر مكتبة البلدية إلا وقت العصر . أتمشى فى شارع منشة إلى شارع محرم بك . ربما اشتريت سندوتشاً ، أو قطعتى معمولة من العصافيرى ، قبل أن أستقل الترام ، أو أنادى على تاكسى لأعود إلى البيت ..

الروايات تقول إن المدينة التى تحوى رفات الإسكندر ، سترى مجداً عظيماً . إذا ظهر قبر الإسكندر ، ستظهر الوثائق بداخله هذا المجد ..

هل كانت مدينة عاد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، هى مدينة الإسكندرية ؟..

لكن مدينة عاد اندثرت ، لم تبق لها باقية . استقرت فى بطون الكتب المقدسة ، وكتب التاريخ ، وألف ليلة وليلة . أما الإسكندرية فقد ظلت ، ونمت ، وتوسعت ، ولم يدركها الموت يوماً ..

ما خلفه رواة الفتح العربى لمصر تحدث عن أعمدة الرخام التى طالعت عمرو بن العاص فى دخوله الإسكندرية من بوابة الشمس . فى النهاية الشرقية للطريق الكانوبى . على يساره مقبرة الإسكندر ، وعن يمينه فاروس . ما يهمنى ـــ فى الرواية ـــ موضع قبر الإسكندر . أفتش عن التابوت

الذهبى ، كتب عليه : " أنت يا من تمر بالقرب منى ، ولا تقول حتى وداعاً . قف ، واحتفظ بكلماتى فى صدرك ، فأنا الآن من ستكون أنت فيما بعد " .

قال الحسن الوزان : فى الإسكندرية ضريح ، ينسبه أبناء المدينة إلى الإسكندر ذى القرنين ، ويتبركون به ..

الإسكندر ذو القرنين هو الرجل الذى مكن الله له فى الأرض ، وأتاه الله من كل شئ سبباً : " ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إناّ مكّنا له فى الأرض ، وأتيناه من كل شئ سبباً ، فأتبع سبباً . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوماً . قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ، وإما أن تتخذ فيهم حسناً .. " قلنا : يا ذا القرنين إما أن تعذب ، وإما أن تتخذ فيهم حسناً . قال : أما من نظلم فسوف نعذبه ، ثم يُرَدّ إلى ربه ، فيعذبه عذاباً نكراً " .. " حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً " .. " حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا : يا ذا القرنين ، إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك مخرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال :

ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة ، أجعل بينكم وبينهم ردماً " .. " قال هذا رحمة من ربى . فإذا جاء وعد ربى جعله دكاً ، وكان وعد ربى حقاً " . وقال الرسول : "ملك الأرض كلها أربعة ، مؤمنان وكافران . فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين عليهما السلام ، والكافران نمرود وبخت نصر . ولم يكن ذو القرنين ــ فى رأى الإمام على ــ ملكاً ولا نبياً ، بل عبداً أحبه الله فأحبه ، فمكّن له فى الأرض " . وقال الخليفة المأمون : أجل ملوك الأرض ثلاثة ، وهم الذين قاموا بنقل الدولة ، وتحويلها : الإسكندر وأزدشير وأبو مسلم الخراسانى . وقيل إن ذا القرنين عربى يمنى ، وليس الإسكندر المقدونى . وقيل إنه ملك من ملوك حمير اسمه " الصعب " ، ولقبه ذو القرنين ..

تناقل الرواة حكايات الإسكندر شفاهة ، فلم تسجل ، ونسيها الناس بتقادم الأعوام . أجهدتنى الأساطير والحكايات الخرافية . لم تقتصر على سيرته فى البر ، للبحر حكاياته التى لا تنتهى . الكثير مما يمكن تقبله ، والكثير الكثير يصعب فهمه ، وشغلنى تمثال قادش الذى قرأت أن الإسكندر وضعه فى مكان التقاء البحر المتوسط ببحر الظلمات ..

الخيال وصل برحلة الإسكندر إلى نبع الخلود . رحلتان ، صحبه فيهما الخضر إلى مغرب الشمس ، وإلى مشرقها . قال له الملك رفائيل : يا ذا القرنين ، إن لله فى الأرض عيناً تدعى عين الحياة ، من شرب منها لا يموت حتى يطلب الموت . عرف المقدونى أن العين فى ظلمات وراء مطلع الشمس . مضى ــ فى الرحلة الأولى ــ إلى بلاد الظلمات ، وعين الشمس تسقط وراءه . قاد جيوشه عبر الجبال والتلال والبحار والأراضى الخالية والمقفرة والمأهولة ، حتى وصل إلى طرف الظلمة . دخل ــ بمعاونة الخضر ــ وراء الشمس فى الظلمة ، مما يلى القطب الشمالى . دعا الإسكندر الخضر وثلاثمائة وستين من رجاله . دفع إلى كل منهم سمكة ، وقال : اذهبوا فى الظلمة ، فهناك ثلاثمائة وستون عيناً ، فيغسل كل منكم سمكة فى عين منها ، فذهبوا . أضاع الخضر سمكة فى الماء ، فسبح وراءها . شرب من الماء ، وعاد ، فأخبر الإسكندر بما حدث .

قال الإسكندر :

ــ كنت أنت صاحب عين الحياة ..

مضى الإسكندر والخضر فى الوادى . يصعب على الخيل والجمال أن تسير فوق أرضه . انتهيا إلى الصخرة البيضاء . حاول الإسكندر أن يرقى عليها ، فأخفق . انتفضت ، وارتعدت ، وتعالت بأصوات رهيبة . أعاد المحاولة ، فأخفق . ثم تكرر إخفاق محاولاته . أما الخضر ، فقد ظلت الصخرة البيضاء ساكنة فى أثناء صعوده إليها . شرب من عين الماء وتطهر ، فنال الخلود إلى يوم القيامة ..

الرحلة الثانية طلبت مطلع الشمس . عبر الإسكندر والخضر أرض الجزيرة والعراق وفارس ونهاوند ، ثم دخلا أرض يأجوج ومأجوج ، ثم بلغا جزائر الأرض التى تزوّر عنها الشمس حين طلوعها ، وواصلا السير إلى أطراف جزائر المحيط . مضى الإسكندر فى البحر المحيط حولاً مغموساً فى الظلمات . ثم طالعته أرض بيضاء كالثلج ، ضوؤها يختلف عن ضوء الشمس ، فهو أبيض يكاد يخطف الأبصار . ساخت الأرض به ، وبخيله ، حتى بلغت الصدور . ترك ذو القرنين جنوده ، ومضى وحيداً . طالعته أرض الملائكة . أعطاه الملك إسرافيل عنقوداً من العنب ، طعاماً له

ولجنده ، وأعطاه حجراً كالبيضة ، وقال له : زنه بما ترى عينك من الدنيا ، فإن لك فيه عبرة . وطالبه بالعودة .

وزن الإسكندر بالحجر كل جواهر الأرض ، فرجح الحجر . لم ترجح عليه سوى قبضة من تراب .

قال له الخضر :

ــ هذه عينك التى لا تشبع ، فلا يملؤها ــ بعد الموت ــ إلا التراب ..

فاز الخضر بالحياة الخالدة ، حين شرب واغتسل فى عين الحياة ، وإن اختفى . شرب من عين الحياة التى أخفق ذو القرنين فى الوصول إليها . لقى ذو القرنين نهاية كل البشر . أخفق ــ للمرة الثانية ــ فى اجتياز عتبة الخلود . لم يشفع له جاهه وفتوحاته وامتداد إمبراطوريته .

رأى فى أسفاره بنات يعشن فى شجرة ، إذا تركنها أدركهن الموت . أقرب ــ فى حكايتهن ــ إلى نساء الواق الواق التى تذكرها ألف ليلة وليلة ..

الفصل العشرون

العرب لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية ..

أوصى المعلم أرسطو تلميذه الإسكندر بإنشاء مكتبة لتراث العالم . نقل الإسكندر وصية معلمه إلى قادته فى أمر يجب تنفيذه . مات الإسكندر قبل أن يشهد المدينة ، والمكتبة بالتالى . تولى الإعداد لإنشاء المكتبة الكاهن والمؤرخ ما نيتون السمنودى . هو الكاهن الأكبر لمعبد " أون " . مول خطوات التنفيذ بطليموس الثانى وزوجته الملكة " أرسنوى " حفيدة الإسكندر . بلغ عدد ما ضمته المكتبة فى نهاية عصر البطالسة أكثر من سبعمائة ألف كتاب ، بالإضافة إلى الوثائق والمخطوطات الموزعة على مكتبتين : الرئيسة الملحقة بمجمع الحكماء ، والفرعية الملحقة بالسرابيوم ..

أحرقت المكتبة مرتين . الأولى [٤٨ ق . م] فى معركة بين كليوباترة السابعة والجيش الرومانى بقيادة القير . أمر القيصر بإحراق جميع السفن فى الميناء الشرقية المطلة

على الحى الملكى . تطايرت النيران من مخازن القمح الملاصقة لمخازن الكتب . أحرقت الكثير من القصور ، وبنايات الجامعة ، والمكتبة . يقول كارل ويندل : " عندما قام قيصر ــ خلال حرب الإسكندرية ــ بتدمير سفن أعدائه ــ بإشعال النار فيها ــ امتدت النيران إلى بعض أجزاء المدينة . دمرت الترسانة البحرية ، ومخازن القمح ، والمكتبة الكبرى " . المرة الثانية فى القرون الأولى بعد الميلاد ، أثناء المعارك بين المسيحيين والوثنيين . أعلنت المسيحية فى نهاية الأمر ديناً رسمياً للدولة الرومانية ، البيزنطية . دمر المسيحيون كل المظاهر الوثنية القديمة ، ومنها ــ كما رأوا ــ بنايات المكتبة ..

قيل إن النيران اشتعلت فى الأسطول الإغريقى ، فامتدت إلى المكتبة المطلة على الشاطئ . أتت على معظم ما كانت تضمه من مجلدات . وقيل إن المسيحيين المتعصبين قد أحرقوا المكتبة القديمة لأنها ــ فى رأيهم ــ تتعارض مع تعاليم المسيحية . غطى دخان حريقها سماء المدينة ، والتهم الحريق ألوف الكتب من دواوين الشعر ، وكتب الأدب والفلسفة ، والعلوم الهيلينية ..

ما بقى من مكتبة الإسكندرية جمعه الإمبراطور سبتيموس سفيروس Septimus Severus (١٩٣ ــ ٢١١ ميلادية) ووضعه فى قبر الإسكندر ، فلا يباح تداولها ، وليحول دون حضور علماء الإسكندرية ، والإطلاع عليها ..

بدا الأمل فى بقايا مكتبة الإسكندرية . ما تبقى من كتب مكتبة بطليموس الأول خليفة الإسكندر . موقعها داخل الحى الملكى القديم . تضم البرديات حكايات الإسكندر ، والمدينة ، والعالم كله ..

قيل إنه فى هذه البرديات ما يشير إلى الموضع الذى اختار الإسكندر قبره فيه ..

فتح عمرو بن العاص الإسكندرية بقوة السلاح . لم يلزم نفسه بتوقيع معاهدة ، أو اتفاقية ، لكنه نهى جنوده عن أعمال السلب والنهب ، وأنشأ جامعاً اختار له اسم " الرحمة " . عدد للخليفة عمر ما بالمدينة من آلاف القصور والحمامات والمسارح وأماكن اللهو ومحال بيع الفاكهة . لم يشر إلى المكتبة لأنها كانت قد دمّرت فى زمن البطالمة . لم يكن ثمة مكتبة عامة . ليس إلا المخطوطات والكتب المودعة فى الكنائس والأديرة ، وهى كتب دينية ، تركها المسلمون ، لأن

أصحابها من أهل الذمة والكتاب .. هذا ما أثبتته الأبحاث التى قرأتها .

كتب الفتوح الإسلامية تخلو من ذكر مكتبة الإسكندرية.

كيف إذن أحرق العرب مكتبة لم تكن موجودة ؟

رواية المؤرخ اليهودى أبو الفرج بن العبرى ، أن حنا الأجرومى ــ أحد كبار القبط ــ طلب من عمرو بن العاص ــ بعد فتح الإسكندرية ــ أن يهبه كتب الحكمة الموجودة بالخزائن الملكية . أمهله عمرو حتى تأتيه نصيحة عمر بن الخطاب بشأن الكتب . قال عمر فى رده : إذا كان فى تلك الكتب ما يوافق ما جاء فى كتاب الله ، ففى كتاب الله ما يغنى عنها . أما إن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فنحن فى غنى عنها ولا حاجة بنا إليها ..

أمر عمرو بن العاص ، فوزعت الكتب على حمامات الإسكندرية [أربعة آلاف حمام كما قلت لك] لتحرق فى مواقدها ..

***

اختلف مؤرخو العرب حول شخصية الإسكندر ، بما يدفعنى إلى هز رأسى . محاولة ما نفض ما تراكم فيها من

أقوال مختلطة ، يميل معظمها إلى الخيال والمبالغة والخرافة والأسطورة .

سمى " ذو القرنين " لأن طاسة الحرب التى كان يلبسها كان لها قرنان . وكان إذا مر بقرية ، علا فيها صوته بزئير الأسد ، وانبعث من قرنيه ظلمات ورعود وبروق وصواعق ، تهلك من تلقاه فى طريقه . ويذهب النيسابورى إلى أن اسمه هو " عباس " ، وكان عبداً صالحاً . وهو ــ عند آخرين ــ " الصعب بن قرين بن الهمال " . وفى كتاب " إكمال الدين " هو رجل " من أهل الإسكندرية يقال له إسكندر " . وثمة من يسميه "الإسكندر بن فليقوس اليونانى " . ويقول البيرونى إنه " أبو كرب شمر بن عمير بن إفريقش الحميرى " . وكان الإسكندر ــ فى تقدير الدميرى ــ مؤيداً من قوة عليا . كانت أمه آدمية ، لكن أباه كان أحد الملائكة الكبار . ويقال إن عمر بن الخطاب سمع رجلاً ينادى : يا ذا القرنين . فقال عمر : أفرغتم من أسماء الأنبياء حتى ارتفعتم إلى أسماء الملائكة ؟! . وكان للشمس قرون فى الديانات القديمة . قيل إن الإسكندر أمسك ــ فى رؤياه ــ بقرنى الشمس . وقيل إنه بعث إلى أهل المشرق والمغرب ، فضربوه على

رأسه مرتين ، عوضه الله عنهما بقرنين . وقيل إنه عاش قرنين من الزمان . وقيل إنه كان يرتدى تاجاً ذا قرنين ، اختلافاً مع اجتهادات أخرى ، ترى أنه عاش خمسة قرون . وينفى ابن تيمية تلمذة الإسكندر لأرسطو . كان ــ فى رأيه ــ مقدماً على أرسطو بمدة عظيمة ، وكان مسلماً . حج إلى البيت الحرام فى مكة ، فسمع به النبى إبراهيم ، فتلقاه . وقال ابن النديم : والصحيح إن شاء الله ، أن أول من سَمَر بالليل الإسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويداعبونه . توقفت عند الصفحة الخامسة والثلاثين فى كتاب الخطط لأحمد تقى الدين المقريزى ، ثم اكتشفت نسيان ما قرأته . نسيته تماماً . كأنى لم أقرأه . جريت على السطور ، أحاول استرجاع ما قرأته . أتذكره بعضه أو كله ، لكننى كنت قد نسيته ..

***

عبر الإسكندر بجيشه بحر الظلمات ..

فأين هو ؟

أين موضع بحر الظلمات فى هذا العالم ؟..

بدأ الإسكندر رحلته إلى أرض الخلود . وصل إلى بلاد الظلمات ، على سواحل بحر لا تهب فيه الرياح ، فتعجز

السفن عن التحرك . قدم اللحوم للطيور الهائلة التى تغطى سماء البحر . طارت بها ــ عبر بحر الظلمات ــ إلى أرض الخلود . عادت ، فقدم لها اللحوم . ثم عادت ، وعادت ، حتى ألفها وألفته . أمر جنوده أن يمتطوا ظهورها . خايلوها بقطع لحم لا تصل إليها مناقيرها . ظلت تطارد اللحم عبر بحر الظلمات حتى وصلت إلى أرض الخلود . عرف الجنود أين تصل الطيور . ربط الطيور بسفنه ، فعبرت بها إلى أرض الخلود ..

وصل الإسكندر إلى شجرتى الشمس والقمـــر ، ذكـــر وأنثى . الشمس عند طلوع النهار وانتصافه وقرب المساء ، وتتكلم شجرة القمر عند أول الليل ، وفى منتصفه ، وقـــرب حلول الفجر . تحدثت الشجرتان إلى الإسكندر . تنبأتـــا لـــه بالموت فى بابل . وهو ما حدث بالفعل ..

* * *

فورستر يرى أن طموح الإسكندر ارتبط بحلم صوفى ، شغله هناء الجنس البشرى . لم يبعد الإسكندر ــ هذا رأيى ــ عن الطرق الصوفية . هو من شيوخ الطريقة السبعينية مع الحلاج والشبلى والنفرى والحبشى وقضيب البان

والشوذى والسهروردى وابن الفارض وابن سينا وابن مسرة وهرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وابن طفيل وابن رشد وأبى مدين الغوث وابن عربى والحرانى وعدى وابن سبعين وغيرهم . كان ذو القرنين على مقدمة جنده . طلب عين الحياة ، ففاتته ، وأصابها الخضر فى قصة طويلة .

قام الإسكندر برحلتين ، إحداهما إلى مغرب الشمس ، والثانية إلى مشرقها . رفيقه فى الرحلتين موسى الخضر . عبر — فى الرحلة الأولى — بلاد الظلمات ، وعين الشمس من ورائه . سار فى وادى الياقوت ، تعبره الخيل والجمال . انتهى إلى الصخرة البيضاء . عندما حاول أن يرقاها ، انتفضت ، وارتعدت . دنا منها الخضر . لامسها بيده ، فسكنت . رقى الخضر عليها حتى صعد إلى السماء . شرب من عين الحياة وتطهر، بينما حرم الإسكندر. وهب الخضر الخلود إلى يوم الحشر ، حياته امتدت — منذ آدم — إلى يوم القيامة ..

قيل أن أبا الخضر كان ملكاً ، وأمه فارسية ، واسمها الهاء ، وقد ولدته فى مغارة ، ووجد هناك شاة ترضعه ، وربّاه غير أبيه ، حتى التقى بأبيه . فر منه حتى وجد عين

الحياة ، فشرب منها . هو حى إذن حتى يخرج الدجال . الخضر هو الرجل الذى يقتله الدجال ، ثم يحييه . قيل : سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء . وقيل إن تسمية الخضر لأنه أينما صلى ، اخضر ما حوله . وقال الجيلى : " سافر الإسكندر ليشرب من هذا الماء ــ عين الحياة ــ اعتماداً على كلام أفلاطون أن من شرب من ماء الحياة لا يموت . لأن أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل ، وشرب من هذا البحر ، فهو باق إلى يومنا هذا فى جبل يسمّى دراوند . وكان أرسطو تلميذ أفلاطون ، وهو أستاذ الإسكندر . صحب الإسكندر فى مسيره إلى مجمع البحرين . فلما وصل إلى أرض الظلمات ، ساروا ، وتبعهم نفر من العسكر ، وأقام بمدينة تسمّى " ثبت " ، وهو حد ما تطلع الشمس عليه . وكان من جملة من صحب الإسكندر من عسكره الخضر عليه السلام " ..

وثمة رواية : طلب ذو القرنين من الملك أن يدله على شئ يطول به عمره . دلّه الملك على عين الحياة ، من شرب منها شربة لم يمت أبداً ، حتى يكون هو الذى يسأل ربه الموت ..

سأل ذو القرنين :

ــ هل تعلم موضعها ؟..

قال الملك :

ــ لا .. غير أنَّا نتحدث فى السماء أن لله ظلمة فى الأرض لم يطؤها إنس ولا جان ، فنحن نظن أن تلك العين فى تلك الظلمة ..

جمع ذو القرنين علماء الأرض ، وسألهم عن عين الحياة ..

قال العلماء :

ــ لا نعرفها ..

قال :

ــ هل وجدتم فى علمكم أن لله ظلمة ؟..

قال واحد من العلماء :

ــ لم تسأل عن هذا ؟..

قال ذو القرنين :

ــ إنى قرأت فى وصية آدم ذكر هذه الظلمة ، وأنها عند قرن الشمس ..

بدأ ذو القرنين رحلته . اختار من جنده ستة آلاف رجل ، على ستة آلاف فرس أنثى بكر ، وعقد للخضر على مقدمته فى ألفى رجل ..

لم يهتد الإسكندر إلى الخضر ، إلاّ لأن قلبه رسم عليه خاتم الأسرار والنبوءات . كانت مهمة الخضر هى البحث عن ماء الحياة ، وأصبح الخضر خالداً ، بعد أن شرب من عين الحياة ..

لجأ الخضر إلى الصحف القديمة ليفسر رؤى ذى القرنين . ما خلفه الإسكندر هو مغزى الحياة ، دلالتها . ما تلك الصحف ؟ هل هى كتابات طلسمية ؟.. وأين أجدها ؟..

ثمة رواية أن الخضر كان وزير ذى القرنين ، وأنه وقف معه على جبل الهند ، فرأى ورقة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . من آدم أبى البشر إلى ذريته : أوصيكم بتقوى الله ، وأحذّركم كيد عدوى وكيد إبليس ، فإنه أنزلنى هنا ، فقال : فنزل ذو القرنين ، فمسح جلوس آدم . وكان مائة وثلاثون ميلاً ..

روايات كثيرة ، يعانى معظمها من الخرافة والأسطورة والخيال . أفضل أن نضعها فى ذلك الإطار ، ونهملها ..

* * *

استوقفتنى عبارة فى خطط المقريزى : " ويقال إن الروم لما خرجت من مصر خبّأوا كثيراً من أموالهم فى مواضع أعدوها لذلك ، وكتبوا كتباً بأماكنها ، وكيفية الوصول إليها ، وأودعت هذه الكتب فى القسطنطينية " ..

هل تكون وصية الإسكندر المودعة فى قبره ، بعض ما خلفته الروم ؟..

الفصل الحادى والعشرون

رافقت البعثة البولندية فى تنقيباتها تحت الصخور والأتربة المتخلفة بعد إزالة كوم الدكة

هضبة ، أو تل ، كوم الدكة ، فى موضع البانتوم القديم.

معبد الإله " بان " تحت التل الذى يطل على أحياء وسط المدينة . هل وضع خلفاء الإسكندر جثمانه فى المعبد ، أو بالقرب منه ؟

وقفت على حافة الحفرة التى وسّعتها المعاول ، وزادت من عمقها . اصطدمت المعاول بما أحدث رنيناً تنبهت له . طالبت العمال أن يكتفوا بالفرش الصغيرة ، اللينة ، لطرد ذرات الرمال الملتصقة بالجسم الحجرى . انكشفت الأرض الترابية عن بناء حجرى بتمثال نصفى للإسكندر ، وتماثيل للإلهة أفروديت ، ولوحات حجرية ملونة من الزيت ، وأوان من القشانى والفخار ، وأماكن للتدفئة ، وخزانات للماء الساخن والماء البارد ..

أشرت على البعثة باستكمال التنقيبات . علت أصوات المطارق والمناشير والفؤوس والمثاقب والمجاريف ..

متى يبوح الكنز بأسراره ، وطقوسه التى طمرتها الرمال ؟

عثرنا على بقايا مسرح رومانى قديم . تحول ـــ بعد ترميمه ـــ إلى مسرح تقدم عليه الفرق عروضها ..

ألفت تحية الأصدقاء والمعارف لى . ثم سؤالهم عما فعلته فى التنقيب عن قبر الإسكندر . وكنت ألتقى بناس لا أعرفهم ، يبادروننى بالسلام ، ويستطردون قبل أن أرد سلامهم : أين وصلت فى تنقيباتك ؟ .. لا يعرفون أنى لم أصل إلى شئ محدد . لم أصل إلى شئ على الإطلاق . الطرق مسدودة ، والأسئلة تتراقص كألغاز مستعصية الفهم..

ترددت على الجوامع والمساجد والخانقاوات والأسبلة والخرائب وبقايا الآثار والكتاتيب والمدارس القديمة والتكايا . تشممت رائحة التاريخ والسحر والأسطورة . ترددت على تل أتريب ، وتل اليهودية ، وتل الفراعنة ، وتل نانيس ، وميت رهينة ، ونزلة السمان ، وجزيرة ألفنتين بأسوان ، ووادى السباع ببلاد النوبة ، وجبانة طيبة ، والأهرامات الثلاثة ،

ومعابد الكرنك واسنا ودندرة وادفو ، والقرنة ، وأخميم ، والأشمونين ، وبقايا تل بسطا ، وآثار الوادى الجديد .

انطلقت من ممفيس ــ بالقرب من القاهرة الحالية ــ إلى شمال الدلتا ، فى الطريق الموازى للنيل . أتعبنى أن الآثار موجودة فى كل مكان . اختلطت الأزمنة فصعب الوصول إلى زمن محدد ، فى مكان محدد . يشغلنى الوصول إلى القبر قبل أن تضيعه قنبلة . قرأت عن قنبلة فى معبد الأقصر ، وقنبلة فى الهرم الأوسط ، ودعوات بهدم الآثار لأنها تجسيد ..

أقرأ عن دول البترول . تنقب عن المياه ، فيتصاعد البترول بدلاً منها . كلما نقبت توقعاً لاكتشاف قبر الإسكندر ، طالعتنى آثار يونانية ورومانية وبطلمية وقبطية واسلامية . الأثر لا يشغلنى . حتى قبر الإسكندر فى ذاته لا يهمنى اكتشافه . هدفى هو الأوراق الوثيقة ، وصية الإسكندر لعالمنا المسكين . لو أن العثور عليها حدث منذ زمان . ربما أفاد منها البشر ، وتجنبوا أخطاء كثيرة ، تالية ..

أصررت على اقتراحى بأن يظل مفتشان مصريان للآثار فوق سفن الرصد ، يتابعان كل الخطوات ،

ويستوضحان ما يبدو غامضاً ، وأن يشارك غواصون مصريون فى عمليات البحث تحت الماء . هذه آثارنا .

كنت أستاذاً للتاريخ القديم حين قدم فرانك جوديو خبير الكشف عن الآثار فى أعماق البحار ، رئيساً لبعثة معهد أوروبا للبحار . تابعت صعود الغواصين من داخل مياه الميناء الشرقية ، قبالة قلعة قايتباى . انتشلوا عملات وتحف وأوانى وأيقونات وبقايا ملابس . لم يكن يشغلنى من ذلك كله إلاّ أن أعثر على البداية ، المفتاح الذى يلج الباب ، يفضى بى إلى السوما . الغواص يهمه النسبة المجزية إن صعد بنفائس نزل للعثور عليها . لا تهمنى النفائس ولا الأموال . تطلعى إلى الباب الذى يفضى بى إلى دنيا السحر ..

***

كان الإسكندر ــ فى رواية كتب التاريخ ــ جباراً معجباً . طغى ــ فى بدايات أمره ــ واستكبر ..

كتب فيليب المقدونى إلى أرسطو فى ٣٥٦ ق . م : " أكتب إليك لأخبرك بأنى رزقت ولداً ، فللآلهة منى خالص الشكر ، لا لمولد الطفل فحسب ، بل لأنه أيضاً ولد فى زمانك . فإن لى أملاً أن يصبح فى آخر الأمر تلميذاً لك ،

وأن يكون جديراً بانتسابه لنا ، خليقاً بأن يرتقى ذروة عرشنا " . أرسطو هو تلميذ أفلاطون . كون لنفسه فلسفة خاصة ، راح ينشرها فى كتبه ، وبين تلاميذه . فى المدينة الصغيرة ميزا ، تلقى الإسكندر ــ على يد أرسطو ــ دروس النحو والخطابة والموسيقا والفلسفة . وكان يواصل استذكار دروسه فى فراشه معظم الليل .يغالب النوم بحمل كرة من المعدن فى يده الممدودة . إذا غلبه النوم ، وقعت الكرة فى إناء معدنى بجانب الفراش ، يذهب رنينها بالنوم من عينيه . ظل الإسكندر ــ لمدة عامين ــ فى موضع التلميذ بين يدى أستاذه أرسطو ..

سأل أرسطو تلاميذه ــ يوماً ــ : كيف سيعاملون أستاذهم عندما يحصل كل منهم على ما يتطلع إليه من مجد وسلطان ؟

قال أحد التلاميذ :

ــ سألزم الجميع بإعلان مظاهر الحفاوة والتكريم نحوك ، وسيكون عشاؤك دوماً على مائدتى ..

قال تلميذ آخر :

ــ ستكون مستشارى الأكبر ..

تساءل الإسكندر :

ــ كيف تهب نفسك الحق فى إلقاء هذا السؤال ؟ وأنى لى أن أستكشف ماذا يخفى المستقبل ؟.. يجب أن تنتظر وترى ..

أعجب أرسطو بما قاله الإسكندر . قال :

ــ أثق أنك ستكون ــ ذات يوم ــ ملكاً عظيماً ..

بلغ أرسطو ما حققه الإسكندر . ذهب إليه فى مدينته الوليدة ، الإسكندرية . وقف بين يديه فى ثقة العلماء ، وقال :

ــ أيها الجبار الظالم .. ألا تخشى إلهك ، أو تأخذ العبرة من الطغاة الذين سبقوك ؟

تكلم أرسطو وتكلم ، دون أن يتدبر وقع الكلمات فى نفس الإسكندر ..

فكر الإسكندر ــ بالغضب ــ فى أن يودعه السجن ، لكنه راجع نفسه ، وتدبر كلمات الفيلسوف . أدرك أن أستاذه لم يبتعد عن الحقيقة ، فدعاه إلى لزومه ، حتى يصل ما كان أخذه من علمه ، ويستضىء أكثر بنور المعرفة فى آرائه

وأقواله . تلقى الإسكندر ــ من أستاذه أرسطو ــ نغمة الحياة الصالحة ، مثلما تلقى الحياة من أبيه فيليب المقدونى ..

نصح أرسطو الإسكندر ــ فى رسائله ــ أن يعامل اليونانيين كقائد لهم . أما الشرقيون فإنهم لا يستحقون سوى معاملة العبيد ، لأنهم كذلك بالفعل ..

وقال المعلم أرسطو لتلميذه الإسكندر :

ــ املك الرعية بالإحسان إليها ، تظفر بالمحبة منها . فإن طلبك بإحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك . واعلم أنك تملك الأبدان ، فاجمع لها القلوب بالمحبة ، واعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول ، قدرت على أن تعمل ، فاجتهد ألاّ تقول ، تسلم من أن تفعل . وقال : إن العبد يولد عبداً . وقال : الحاكم الشرقى هو ــ وحده ــ الحر فى بلاده .. وهؤلاء الشرقيون يجدون فى طغيان الحاكم أمراً طبيعياً ، لا يحتجون ولا يتمردون . إنه مثل القدر ، لا سبيل إلى الفكاك منه . يؤمنون بأن الحياة الصالحة هى حياة الطاعة ، والحاكم دائماً على حق . طالت معاشرتهم للطغيان ، فاعتادوه ، اعتبروه مسألة طبيعية . الحاكم فى دنيا الشرق لا يعترف لرعاياه بأية حقوق ، لا ينظر إليهم إلاّ بوصفهم هوامش ، نفايات إنسانية

، أدوات يخضعها لسياسته . إنهم لا أكثر من برابرة وهمج وعبيد . وقال أرسطو : الرجل الحر لا يستطيع أن يتحمل حكم الطاغية . والرجل اليونانى لا يطيق الطغيان ، بل ينفر منه . أما الرجل الشرقى فإنه يجده أمراً طبيعياً ، فهو نفسه طاغية فى بيته ، يعامل زوجته معاملة العبيد ، فلا يدهشه أن يعامله الحاكم معاملة العبيد . وقال : إن أفضل وأقصر طريق يكفل لك أن تحيا فى هذه الدنيا موفور الكرامة ، هو أن يكون ما تبطنه فى نفسك ، كالذى يظهر منك للناس ..

ألغى الإسكندر فكرة أستاذه أرسطو أن الحضارة مقصورة على بلاد اليونان ، وأن البلاد الأخرى مجرد جماعات من الهمج . ألغى ما استقر فى أذهان قومه من أنهم السادة ، بينما سائر الناس يشكّلون فئات العبيد . لم يعامل حتى الفرس الذين انتصر عليهم بوصفه سيداً لهم . الامتزاج الأممى يساوى بين السيد والمسود ، الغالب والمغلوب . ربما أفاد التابع متبوعه بما يعجز المتبوع عن تعلمه ، والإفادة منه بواسطة نفسه ..

حين أعلن نبأ وفاة الإسكندر ، حرّك التمرد سكون أثينا ، واضطربت أحوالها ..

فر أرسطو من المدينة ، وقال :

ــ أنا لن أسمح لأثينا أن ترتكب الجريمة نفسها مرتين في حق الفلسفة ــ يقصد إعدام سقراط من قبل .

* * *

هل كانت فارس هي الباعث لحالة التأله التي صار عليها الإسكندر ؟..

لم يعرف في حياته اليونانية والمقدونية ألقاباً مثل ملك الملوك ولا ابن الآلهة ، ولا اعتاد سجود الرعية للحاكم ، وتأليههم له ، لكنه تعرف إلى ذلك كله في فارس بعد أن غزاها . ونقل الكثير من العادات الفارسية التي لم تكن تعرفها بلاده .

حين دخل بابل ، قيل له إن الناس سيركعون أمامك ، لأنهم يعتقدون أن مردوخ وراء المجد الذي حققته . صار على الجميع أن يسجدوا للملك ، وصار الملك هو الإله للجميع . كان أول ما فعله الإسكندر ــ عقب عودته من غزو الشرق ــ أنه طلب من اليونانيين أن يسجدوا له ، كما فعل الفرس . عارض اليونانيون ، وأعلنوا سخطهم ، وانخرط أحد قواده في نوبة من الضحك ..

قرر الإسكندر أن يقصر السجود له على الأجناس الآسيوية وحدها ، وإن أمسك بكل السلطات فى يده . هو الشريعة الحية ، لا يقيده شئ ، وإرادته مطلقة ، وما يقره هو عادل أبداً ..

حين ذهب الإسكندر إلى واحة آمون ، شاهد طقوس عيد الإله آمون إله طيبة . الرحلة النيلية لآمون وزوجته الإلهة موت ، وابنهما الإله خنسو ، من معبد الكرنك إلى الأقصر ، والعودة مرة أخرى . رافق الرحلة صلوات الكهنة ، ونفير الجنود ، وغناء المحتشدين على ضفتى النهر .

فى كتب التاريخ أنه قد فُتح مدخل للإسكندر فى ظهر قدس الأقداس ، على البهو الذى يمثل المظهر الرئيس للساحة الخلفية من المعبد . أخفقت فى التعرف على الموضع القديم بما يضعنى فى التصور .

صار الإسكندر ــ فى حفل أقامه له المصريون ــ ابناً للإله آمون . وضع على رأسه القرنين المقدسين لكبش طيبة . وكان الكبش رمزاً لعبادة آمون . أصبح الإسكندر إذن من نسل الآلهة ..

هل نصب كهنة آمون الإسكندر إلهاً ، واحداً من آلهتهم ، حتى يمارسوا عباداتهم فى طمأنينة ؟ هل اختاروه تقية درءاً لشره ؟!..هل اعتنق الإسكندر ديانة المصريين ، أو تظاهر باعتناقها ، أو أنه أوصى بدفن جثمانه فى وطن آمون الذى أمن به ، وصار ابناً له ؟..

قال لى العجوز وأنا أحتمى بخيمته من حر سيوة :

ــ الإسكندر أول من حاول أن يستولى على العالم .. ثم انتهت حملاته بالموت ..

ثمة قريتان : سيوة وأغورمى . تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة ميلين ، وتقوم كل منهما على صخرة تطل على آفاق ممتدة من أشجار النخيل ومزارع الزيتون . فى أغورمى بقايا هيكل آمون ، وبقايا معبد أصغر يسميه الأهالى " أم عبيد " .

ناوشتنى القراءات : أسد فارس هو الإسم الذى أطلقه الإسكندر على نفسه لفترة ، ثم أطلق على نفسه اسم سيد آسيا ، ثم صار الملك ، وسك كل الألقاب على العملات الآسيوية . صار الملك مطلقاً ، يشرّع بمفرده ، وهو القائد الأعلى للجيش ، وعلمه وسع كل شئ ، ويفصل فى كل القضايا ،

حتى القضايا الشخصية والجرائم . قال إن زيوس كبير الآلهة كان والده ، ثم جاوز الادعاء بأنه سليل الآلهة . آمن بأنه هو الإله فعلاً . لم يعد السجود له مجرد تعبير عن تقدير ، لكنه ممارسة دينية ، اعتقاد دينى . من يتردد فى السجود فهو يتردد فى أداء فرض دينى . جاراه الكهنة بأمل ، أو أنهم خشوا بطشه . أكدوا أنه من نسل الآلهة . وقالوا إن أمواج البحر تعرفت إلى الإسكندر ، وهو يتمشى على الشاطئ ، فسبّحت بحمده ، ورفعت له آيات الولاء باعتباره الإله ..

أردف العجوز :

ــ هناك نقطة لا ينبغى لأى إنسان ــ مادام إنساناً ــ تخطيها ..

ورسم بعصاه دائرة فى الهواء :

ــ لابد أن تدور الدائرة لتبدأ دورتها فى ناحية ثانية..

هل عثر الرجل على قبر الإسكندر .. وهل تكون هذه كلمات الوثيقة ؟.. هل اعترف الإسكندر فى وثيقته بأنه أخطأ ؟ لم يحسن تخمين متى يوقف زحفه لاحتلال العالم ، ولا استطاع الاحتفاظ بوحدة إمبراطوريته من الشرق والغرب ،

ولا إمهال النفس للتفكير فى مغزى الفتوحات ثمانى سنوات متصلة ..

***

زرت معبد الكرنك ، المقر الرسمى للإله أمون . استعدت فى وقفتى ــ فى المتحف الرومانى ــ صورة وجه الإسكندر يرتدى قرنى آمون . مع أن المعبد أنشئ فى الدولة الوسطى ، فقد أسهم ملوك مصر وحكام الدولة الحديثة فى إضفاء التوسعات عليه ، وإضافة الأعمدة والمسلات والتماثيل والبوابات ، حتى صار فى تلك الأبهة التى هو عليها .

اعتبر نفسه وريثاً لحضارتين : الفرعونية واليونانية . مبادئه فى المواءمة بين حضارات الشرق الأدنى والحضارة اليونانية ، وهى التى أقام عليها البطالمة والسلوقيون الحضارة الهلينستية ..

طريق الكباش . التماثيل فى هيئة أبى الهول على الجانبين . مدينة آمون ، بين معبدى الأقصر والكرنك . على البر الشرقى للنيل . يربطهما طريق الكباش الضخم . لعل الضريح موجود فى مدينة الموتى على البر الغربى فى الصحراء ، أو فى الشمال قبالة الكرنك . مع مقابر ملوك

الأسرة الحادية عشرة ، أو السابعة عشرة ، أو ضمن مقابر الأشراف المحفورة فى الحجر الجيرى لجرف الجبل المطل على الوادى ، أو فى داخل معبدى منتوحوتب الأول وحتشبسوت فى حضن جبل الدير البحرى ، أو تحت خرائب المعابد الجنائزية الملكية ، عند حافة الأرض المزروعة : سيتى الأول ، رعمسيس الثانى ، رعمسيس الثالث ، وغيرهم من ملوك مصر القديمة .

ثمة لوحات للإسكندر على معبد الكرنك . هل هى على موضع النهاية ؟ هل هى فوق قبر الإسكندر ؟..

***

عدت من الأقصر . كانت قد تركت البيت بالفعل ، وأقامت عند أهلها ..

أعاد الأب قوله :

ــ فشلت محاولات كثيرة للبحث عن قبر الإسكندر ..

أردف متسائلاً :

ــ لماذا تتوقع نجاح محاولتك ؟

قلت :

ــ لا أتوقع .. لكننى أصر على أن أجد المقبرة ..

ورفعت صوتى :

ــ المقبرة فى ذاتها لا تشغلنى.. مستقبل الإسكندرية هو الذى يهمنى ..

أضفت لنظرة الدهشة فى عينيه :

ــ أريد الطلسم الذى يحمى الإسكندرية من الغرق ..

وهو يومئ برأسه دلالة الموافقة :

ــ ما نعرفه أن الإسكندرية لها طلسم يحميها من كل شر ..

وتحسس ــ دون أن ينظر ــ موضع علبة السجاير على المائدة :

ــ إنه من صنع أولياء الله الصالحين ..

واهتز رأسه فى عدم اقتناع :

ــ أنت تضيع وقتك فيما لا جدوى منه ..

ــ أنا أعرف ما أفعله ..

ــ لا تتضايق إذن عندما تترك الدكتورة البيت ..

رميته بنظرة مستنكرة :

ــ نجلاء تبحث عن سبب لنفورها من الحياة معى ..

ــ إذا كان ذلك ما تشعر به .. لماذا لا تطلقها ؟

ــ تشعل النار بدلاً من أن تعيد إليها عقلها ..

ــ تصف زوجتك الطبيبة بأنها فاقدة العقل ؟!

تطايرت بقع سوداء أمام عينىّ :

ــ طريقة غريبة لتصيد الأخطاء ..

وأنا أتهيأ للقيام :

ــ لو أنى أؤاخذ نجلاء على أى شئ ما جئت إلى هنا ..

الفصل الثانى والعشرون

قلعة قايتباى ..

لم أكن أعرف ــ ولا كان يشغلنى ــ رغم تخصصى ــ أن القلعة شيدت فى عصر السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى الجركسى المحمودى فى ١٤٦٧ ميلادية . مؤلفة من ثلاثة طوابق على نظام قلاع العصور الوسطى . بالرجوع إلى المصادر عرفت أن الذى وضع أساسها هو السلطان الأشرف قايتباى ، من المماليك الشراكسة . عندما زار مدينة الإسكندرية فى ٨٨٢ هـ . ١٤٧٧ م . أمر ببناء برج فى نهاية لسان أرض الموضع الذى كان أقيمت فيه منارة الإسكندرية القديمة . عرف البرج باسم قلعة قايتباى . كان هدفه حماية ساحل الإسكندرية فى منطقة تقترب من مينائيها الشرقى والغربى . مكتوب عليها : " شيّدها الملك الأشرف أبو النصر قايتباى منذ أكثر من خمسمائة عام ، وتطل على منارة الإسكندرية التى تعتبر ثالث عجائب الدنيا السبع ،

والتى كان يصل ارتفاعها مائة متر ، ومكونة من ثلاثة طوابق " ..

استطعت ــ فى وقفتى أمام القلعة ــ أن أرقب خروج الغواصين بما أذهل الجميع . لم تكن الآثار بطلمية كما توقعت ، وكما توقع من يحيطون بى ، أو يتحركون داخل البلانس . ثمة ما يشبه المدينة الفرعونية فى قاع البحر . بالتحديد على عمق ستة أمتار من السطح . مدينة كاملة من الميادين والشوارع والقصور والتماثيل والأعمدة . هل هى مدينة راكوتيس ، المصرية القديمة . موضعها حيث بنيت الإسكندرية ، قبل ثلاثمائة عام من قدوم الإسكندر عليها ..

أنشئت ــ للمرة الأولى ــ إدارة عامة للآثار الغارقة . لم يكن ذلك هو بداية الاهتمام بالآثار الغارقة . البداية فى عام ١٩١٠ عندما كان المهندس الفرنسى جاستون جوديث يشارك فى عمليات توسيع الميناء الغربى . ثم توالت الاكتشافات فى الميناءين الشرقى والغربى ، وفى خليج أبو قير ..

قال لى الدكتور رائف بهجت وهو يطيل التحديق فى القطعة الأثرية :

ـ الإسكندرية مدينة مصرية قديمة ، وليست مدينة بناها الإسكندر ..

***

ماذا لو ؟..

أعيد النظر ـ من بعد ـ إلى سراى رأس التين ، بتداخل حجارتها الحمراء والبيضاء ، والبوابات العالية ، والأبراج ، ونوافذ المبنى الملاصق ، الخشبية ، المرتفعة . أمامها الحدوة الخضراء ، تمتد من قبالة شاطئ الأنفوشى إلى الميناء الغربى بأفق الأوناش والحاويات والبواخر الضخمة والأرصفة والمخازن ..

ربما الإسكندر أمر ببناء قبره فيها ، للتمويه . قرأت أنه كان يستريح فى جلسته ، فى شرفة القصر المطلة على بحر الروم ..

هل توافق الدولة على الحفر فى موقع السراى ، تحت البوابات العالية ، أو فى الداخل ؟ أو حتى الحديقة الهائلة الممتدة أمامها ؟..

تكررت وقفتى فى الموضع نفسه . بدا الاهتمام ـ وربما الارتياب ـ فى أعين المارة والواقفين والجالسين ..

نزلت من الترام فى محطة الرمل ..

جلست فى التريانون حتى انتهيت من احتساء فنجان الشاى . ثم ملت إلى شارع سعد زغلول . طالت وقفتى فى الطابق العلوى بمكتبة دار المعارف . رمقنى الشاب الواقف وراء الطاولة المستطيلة ، رصت فوقها الكتب . تشاغلت بتأمل الأرفف ، والفراغ ..

لما بدأ عبد الرحمن الجبرتى كتابة تاريخه طاف بالقرافات لقراءة النقوش على القبور ، واتصل بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم " إن كانت لهم أوراق " . الإسكندر لم يخلف قبراً أقرأ نقوشه ، ولا أقارب أستعين بهم فى معرفة الغامض من تفصيلات حياته . أقاربه هم قواده وجنوده . قتلوا ، أو ماتوا ، أو عادوا إلى بلادهم . حتى أسماء قادة جيشه غابت ، كأنه هو وحده جيشه ، يقوده ، ويقاتل به . الأوراق مصدرى الوحيد . كتابات المؤرخين وعلماء الآثار والمكتشفات الأثرية إن وصلت إليها التنقيبات . أمضيت أوقاتاً فى المتاحف والمكتبات العامة ودهاليز السجلات ، وتقليب الوثائق ، وتصويرها ..

ولدته أمه بعد أن رأت صاعقة لامست الأرض ، وأحرقت كل ما حولها . اتهمت المرأة فى وليدها . وقيل إن الإسكندر ليس ابناً لوالده ، لكنه ولد من الإله جوبيتر . وكان بين الأب والابن منازعات لا تنتهى ، تحملها الأب لذكاء ابنه وشجاعته ..

رأى ــ وهو طفل ــ فشل القادة فى امتطاء جواد برّى جامح . طلب من أبيه أن يأذن له بركوب الجواد . رفض الأب ــ إشفاقاً ــ وأصر الابن حين أذن الأب للابن بأن يحاول ، اقترب من الجواد ، وربت عنقه فى عطف ، ثم أداره ببطء إلى الناحية المقابلة ، واعتلاه فى هدوء ..

ظل الجواد هادئاً ، فلم يثر ، ولا حاول إلقائه من فوق ظهره ..

قال الإسكندر لأبيه :

ــ أدرت الجواد ناحية الجانب المقابل ، لأن أشعة الشمس كانت تستثير عينيه . وكان يرفض أن يمتطيه أحد . لما أدرته بعيداً عن مواجهة الشمس ، هدأ ، واستسلم للركوب ..

قبله فيليب ــ فرحاً ــ وقال له :

ـــ عليك أن تشق طريقك يا بنى إلى حيث تخلق لنفسك ملكاً أنت به جدير ، فإن مقدونيا أضيق من أن تتسع أمام طموحاتك ..

ودعت أم الإسكندر لولدها :

ـــ اللهم اجعله ذا حظ يستخدم به ذوى العقول ، ولا تجعله ذا عقل يستخدمه ذوو الحظوظ

لم يكن يشغله اتساع دولة الإغريق بقدر ما يشغله البحث عن المجهول ، عن غير ما ألف الناس رؤيته والتعرّف إليه . وكان يشغله التحدى ، الطموح الشخصى ، الرغبة فى الاستحواذ والتملك والسيطرة . ولم يكن يؤمن بالصدفة ، فهو يضع لكل خطة احتمالاتها . يضع الخرائط أمامه ، يسأل ، ويناقش ، ويطلب المعلومة الصحيحة . كانت الاستراتيجية معلماً فى تفكيره ، استراتيجية منظمة ، تصعد الدرج سلمة سلمة ، تصل البداية باللحظة الراهنة ، يتصور المكاسب ووسائل تحقيق الهدف . يضع لكل حملة توقعاتها بما يخالف توقعات الأحلام الأخرى . ما قد تتطلبه معركة ، قد يغيب عن معركة أخرى . إذا انطلق السهم ، فمن المستحيل أن نعيده إلى حيث كان ..

عرف فى نهاية أيامه انه لم يكن يؤمن إلاّ بنفسه . كان الإسكندر هو البدء والمنتهى ، وهو مثله الأعلى ، وإن ظل يحارب فى المشرق العربى ، وفى الشمال الإفريقى ..

أمضى فى مدينته الجديدة ، الإسكندرية ، ستة أشهر ، ثم مضى إلى الشرق ليكمل غزواته . وصل إلى الهند ، ثم أصيب بالحمى ، ومات فى عام ٣٢٣ قبل الميلاد ، ولم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين ..

حمله رجاله ، وعادوا به ، وبعث بطليموس الأول المقدونى رجاله . استولوا ـــ عند بابل ـــ على الموكب الجنائزى ، وحملوه إلى الإسكندرية .

بين عامى ٣٢٣ ق . م ، و٢٨٠ ق . م ، تحللت إمبراطورية الإسكندر . حلّت محلّها مجموعة من الدول الجديدة ..

***

استقبلت فى مكتبى بعثة المركز الفرنسى القومى للدراسات .

قدم لى جاك شارتييه المسيو هنرى جابان رئيس الخبراء الفرنسيين .

قال لى : إن عمليات البحث تشمل مرحلتين : مسح مواقع الإسكندرية القديمة ، ثم انتشال الآثار والكنوز الغارقة فى المينا الشرقية وأبو قير .

اختارت البعثة فصل الخريف لتبدأ مهمتها . تستمر المهمة طيلة أشهر الخريف . الخريف هو ربيع مصر ، يصفو فيه الجو ، ويخلو البحر من النوات . البعثات الأجنبية تعمل فى فترة غياب النوات ، من إبريل إلى نوفمبر . تأتى النوات فتعطل كل شئ ..

أشرفت ـــ بصفتى ـــ على عمليات المسح لأعماق المينا الشرقية . كأنها النبع الذى لا يبين مصدره . ينفذ أوامرى ثلاثون غواصاً مصرياً وفرنسياً ، يجيدون المسح الطبوغرافى والتصوير تحت الماء والرفع المعمارى والترميم . تشمل عمليات المسح مساحة فدانين أمام قلعة قايتباى ..

ثمة أجزاء من معابد وقصور وأعمدة أسطوانية متآكلة النقوش والرسومات . نقلوا إلى السطح تماثيل صغيرة ، غير مكتملة ، وعملات مغطاة بالطحالب والأعشاب ..

قلت لجاك شارتييه :

ـــ هل تنوى البعثة الحصول على بعض ما قد تنتشله من آثار ؟

سكت ، ثم رفع رأسه وقال :

ـــ هل قرأت الاتفاقية بين الجانبين المصرى والفرنسى؟

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها تعطى الجانب الفرنسى حق النشر العلمى وحده..

وتراخى على الكرسى :

ـــ ماعدا ذلك ، عمليات الترميم على نفقة البعثة .. وكل ما تحصل عليه من آثار تسلمه إلى الجانب المصرى . حتى المصاريف التى تنفقها ليس من حقها المطالبة بها .

* * *

المسح الجيوفيزيقى ، تعبير لا ألجأ إليه فى عملى كأستاذ تاريخ . لكن التوصل إلى الهدف بوابته ذلك المسح استعنت بثلاث فرق لعمل المسح . علماء مصريين ويونانيين وألمان . أفادوا من أحدث أجهزة المسح الأثرى . الوصول إلى مدينة البطالمة يحتاج إلى حفر فى عمق ثمانية أمتار من سطح الأرض ..

الروايات تقول إن المملكة التى ستضم رفات الإسكندر سيكون فيها مجد عظيم . أراد أهل الإسكندرية لمدينتهم هذا المجد ، فدفنوه فى أرضها ..

ظل جيش الإسكندر ــ ضباطه وجنوده ــ على ولاء للقائد ، حتى بعد أن اختطفه الموت . فهل اعترف ــ فى وثيقته ــ بأنه حافظ على تماسك جيشه بالقضاء على الكثير من قياداته ؟

قال لى جاك شارتييه :

ــ أثق أن الوثيقة تحدثت فى ذلك ، وأكدته ..

قال الدكتور نعمان نجاتى :

ــ من قراءاتى أستطيع القول أن الوثيقة تعلن ندمه على ما أحدثته فتوحاته من دمار .. الإصرار على إحراق المدن وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال ..

قلت :

ــ لكن الوثيقة لاتزال مخفية !..

صعد الغواصون بتمثال لملك بطلمى ، طوله متر ونصف المتر . خمنت إنه بطليموس الثانى . مجموعة تماثيل لأبو الهول ، متباينة الأحجام ونوع المادة المستخدمة ،

وأبدان أعمدة ، وتيجان ، وقواعد ، وتماثيل ، وعناصر معمارية مصرية وإغريقية ورومانية ، وكتل هائلة من جرانيت أسوان الأحمر ، تناثرت فى صف واحد ، شمالى القلعة . تصل أوزانها إلى سبعين طناً . تبدو كأنها سقطت من مكان مرتفع ، إثر زلزال أو ما شابه . لعلها بقايا فنار الإسكندرية القديم . دمره ــ كما تعلم ــ زلزال فى القرن الرابع عشر .

الفصل الثالث والعشرون

كررت دعوة جاك شارتييه لزيارتى ..

كان يرجع إلى مكتبتى ، وكنت أفيد من معلوماته ..

الكنبة الجلدية أزاوج فى استخدامها للجلوس والنوم . على الجدران أرفف ، صفت فيها كتب ومخطوطات ومجلدات ووثائق وخرائط . فى أعلى علقت صور فوتوغرافية ولوحات عن الإسكندرية فى توالى عصورها ، تآكلت حوافها ، أو شحبت ألوانها ، بمرور الوقت . الطاولة الخشبية فى الركن فوقها تمثال لفارس يمتطى جواداً ، ويشهر سيفاً . وفى الركن المقابل ، طاولة مستطيلة فوقها حوض زجاجى ، تسبح فيه أسراب من سمك الزينة . وثمة نسمات رطبة تأتى من ناحية البحر .

لم يكن فى وجهه ما يبين عن مشاعره ، ولا ما يفكر فيه . يطول صمته قبل أن يرد على ما يوجه إليه من أسئلة ، ربما ليفتش عن الكلمات المناسبة . ربما هم أن يجيب ، ثم يؤثر الصمت ، يتحصن به .

قلت :

ــ ألا تحن إلى فرنسا ؟

ــ أحياناً .. لكن عملى أهم ..

ــ أهم من زوجتك وأبنائك ؟!

ــ لا أميل إلى الخلط .. أثق أن أسرتى يهمها أن أعود إلى فرنسا ..

ثم وهو يتأمل السحابة الصغيرة المتصاعدة من فنجان الشاى :

ــ لم يكن يشغلنى قبر الإسكندر .. الآن يوجد احتمال للعثور عليه ..

فاجأته بالسؤال :

ــ هل أنت على ثقة من وجود قبر الإسكندر ؟

ــ أنا أبحث عن ضمن عمليات التنقيب ..

ــ تنقيباتكم ليست للبحث عن القبر وحده ؟

ــ هناك بعثات أخرى .. لها مهام مختلفة ..

ــ أنا مثلك أبحث عن القبر .. لكن السبب يختلف ..

قال مداعباً :

ــ تريد أن تصلى على الجثمان ؟

أهملت قوله :

ـــ أنا لا أبحث عن الكنز لأنه كذلك .. ما يشغلنى أن أجد الكلمات التى خلّفها الإسكندر

أومأ إلى بنظرة تستحثنى على مواصلة الكلام ..

قلت :

ـــ الكلمات تتحدث عن طلسم يحمى الإسكندرية من الغرق ..

وعلا صوتى بالانفعال :

ـــ إنقاذ مدينة من الغرق أهم من العثور على كنز ..

تخلى عن نبرته المداعبة :

ـــ أتصور أن هذه نقطة الاختلاف بينك وبين السيدة نجلاء ..

ـــ زوجتى ؟

ـــ ترى أنك تضيع الوقت فى البحث عن خطر غير حقيقى ..

ـــ متى قالت لك هذا ؟ وأين ؟

كأنه يدفع تهمة :

ـــ هذه ليست زيارتى الأولى ..

فى لهجة باترة :

ــ أرجو ألا تناقش زوجتى فى عملى ..

***

تطلعت عيناى إلى مكتبها داخل غرفة الأطباء . لم أجدها . تلفت ــ بنظرة ملهوفة ــ فى الغرف القريبة . عرفتنى ممرضة الاستقبال فى جلستها وراء الطاولة المستطيلة :

ــ الدكتورة نجلاء خرجت من ساعة ..

ــ إلى أين ؟

ــ لم تقل .. لكنها ستعود إلى المستشفى ..

أدركت ــ من ملاحظاتها وأسئلتها ــ أن جاك شارتييه يشغلها : هل كان جاك فى الموقع ؟ يبدو أن جاك يعرف عمله جيداً . جاك يترك ثلث فنجان الشاى . جاك يمتلك معلومات جيدة . أعطانى جاك صورة جميلة للحياة فى فرنسا ..

حدست العاطفة التى تكنها لجاك . يغيظنى أنه يعمل فى المجال نفسه الذى أعمل فيه . الفرنسى يعمل ــ مثلما أعمل

ـــ فى التنقيب عن الموتى . التعبير الذى تردده . ماذا يعنيها من أمره ؟.. هل ينقب عن الآثار ، أو ينقب فى قلبها ؟..

عمقت الهوة بيننا . زاد اتساعها بالشك ، والتوجس ، وغياب الفهم ..

أتابع تعبيراتها وهى تنصت إلى أحاديثه عن الحياة فى فرنسا : الشانزلزيه والمسلة المصرية وكنيسة نوتردام وبرج إيفل ومترو الأنفاق والبيجال والحى اللاتينى ونهر السين ..

قلت ، مدفوعاً برغبة فى استفزازه :

ـــ ملاحظتى عن السين أنه ترعة بالقياس إلى النيل ..

ظل على هدوئه :

ـــ النيل نهر عظيم ، وإن كان المصريون لا يحسنون رعايته !

لاحظت أن العادة الشهرية تأتيها أكثر من مرة فى الشهر الواحد ، وأنها تطول فى كل مرة ، فتزيد عن الأيام الخمسة ..

قلت :

ـــ أخشى أن تتحول إلى عادة يومية ..

ـــ ماذا تعنى ؟

قلت لأبتعد عن المواجهة :

ــ أعرضى نفسك على طبيب ..

وتنبهت إلى المعنى ، فاستطردت :

ــ أنت طبيبة . حاولى أن تعالجى نفسك .

تدخل جاك شارتييه فى المناقشة :

ــ أعرف أن الدكتورة نجلاء تأمل مثلك فى العثور على قبر الإسكندر .. على كنزه ..

نفثت تنهيدة :

ــ قبر الإسكندر لا يشغلنى ، ولا يشغلنى الكنز ، ولا تشغلنى حتى آثار البطالمة ..

أهملت بسمة السخرية فى جانب فمه :

ــ هل تبحث عن فراغ ؟

ــ الطلسم هو ما يهمنى .. وهو موجود فى القبر ..

ــ معظم الروايات تؤكد أن الكنز موجود فى القبر ..

أضاف فى صوت متلكئ :

ــ لكن ، أين هو القبر ؟

ــ هذا هو ما يشغلنى ..

قالت نجلاء :

ــ إذا عثرتم على القبر .. هل تعثرون على الكنز ؟

أومأ جاك برأسه دلالة التأكيد . واستطرد :

ــ إلا إذا كان خلفاؤه البطالمة قد جردوا الكنز مما به..

قلت :

ــ لم تشر روايات التاريخ إلى هذا الاحتمال ..

اتجهت ناحيتى بنظرة ود :

ــ زوجى إذن مشروع ثرى ؟

دون أن يجاوز هدوءه :

ــ ربما !

بدا على عم عبد السلام تردد :

ــ يبدو أن الكنز الذى تبحث عنه هو سر المشكلة ..

رفعت عيناً متسائلة :

ــ أى مشكلة ؟

ــ تعرف أن الدكتورة نجلاء كانت تحب شاباً آخر ..

ــ قالت إنها لم تكن تحبه .. وتحبنى ..

ــ ملأ حمواك أذنيها بكلام عن الثراء الذى ينتظرك عند العثور على الكنز ..

تأملت الإشفاق فى عينيه :

ـــ ظننت أنك ستفطن إلى الأمر ..

أخفض رأسه . حدست أنه يفتش عن كلمات لا تضايقنى :

ـــ المشكلة أنهم لم يعودوا يصدقون ما تصر على تصديقه ..

ورفع فى وجهى إصبعاً محذراً :

ـــ انفض رأسك من هذه المشكلة .

الفصل الرابع والعشرون

خلفت مسرح سيد درويش ورائى .

ثمة احتمال بوجود نفق تحت الأرض من الكنيسة اليونانية ، بجوار سوق الجلود الملاصق لمسرح سيد درويش . لم تحدث حفائر ، فلا يدرى أحد من أين يبدأ ، ولا إلى أين ينتهى ..

سرت فى طريق جمال عبد الناصر ، وشارع الكنيسة اليونانية ، وشارع صفية زغلول ، حتى محطة الرمل . ملت إلى شارع سعد زغلول . أغلقت معظم الدكاكين أبوابها ، وقل المارة والسيارات . انشغل عمال النظافة برش الشارع بخراطيم المياه ، يغسلونها ..

كنت أسير فى الشوارع دون وجهة معينة . أتأمل ــ ربما بلا تنبه ــ اللافتات والدكاكين والمقاهى وعربات النواصى . أميل فى التقاطعات والانحناءات . أترك لقدمى عفوية المصادفة ..

لم ألحظ تسمية الإسكندر ، ولا شعار الإسكندرية ، لولا أن نبهنى جاك شارتييه بعد أن سحب لنفسه كرسياً :

ــ ألهذا تجلس فى أتينيوس ؟

ــ أتينيوس مجرد مصادفة .. أنا لا أجلس فى مكان محدد ..

أردفت فى تململ :

ــ فى الحقيقة أنى لا أحب الجلوس على المقاهى ..

وتهيأت للقيام :

ــ الهواء جميل ..

أبطأت من خطواتى ليلحق بى :

ــ ما رأيك فى أن نتمشى على الكورنيش ؟

قال :

ــ لم تعد تتردد على الموقع ..

ــ المواقع كثيرة ..

ــ أقصد موقع المينا الشرقية ..

ــ أحاول أن أفتش فى مواضع أخرى يحتمل وجود المقبرة فيها ..

ــ نحن نبحث عن الإسكندرية البطلمية ، وأنت ــ كما أرى ــ تكتفى بالبحث عن مقبرة الإسكندر ..

ــ أظن أن هذه المشكلة يجب أن تقلقك أنت أيضاً !

أضفت لنظرته المتسائلة :

ــ لفرنسا سواحل طويلة ، والمأساة تهدد كل سواحل البحار والمحيطات ..

ــ عملى خبير آثار . يكفى أن أتقنه ..

وتطلع إلى موضع غير محدد فى أفق المينا الشرقية :

ــ ما يهمنى هو الإسكندرية البطلمية وليس قبر الإسكندر وحده ..

ــ حتى قبر الإسكندر لا يشغلنى فى ذاته . ما يشغلنى هو الطلسم الذى يضمه القبر ..

ــ أوافق الدكتورة نجلاء على أن ما يشغلك بحث فى الخرافة ..

أزمعت أن أشتمه ، أصفعه ، أضربه ، لكننى تماسكت . قلت له بينى وبين نفسى : أرجوك ، لا تأت إلى بيتى بعد اليوم . فى بلادكم عادات لا نتقبلها .. تضايقنى ثرثراتك الهامسة لزوجتى .. أنت تكلم نجلاء عن عملها أكثر مما

تكلمنى عن الآثار ، عملنا المشترك .. كأنك تحاول إفساد حياتى .. ثم شغلنى السؤال الذى ينبغى أن أفسر به ــ أمامها ــ طلبى . كتمت إرادتى ، وإن أرجأت إلى الأيام التالية فعلاً محتملاً ، قاسياً ..

ــ الدكتورة نجلاء طبيبة وليست مؤرخة .. ليست عالمة ..

ــ أثق أن العلم هو الذى يحمى الإسكندرية من الغرق وليس الطلسم ..

ونطق الرفض فى عينيه :

ــ الطلسم مجرد خرافة ..

ــ فى حوزتى من الدلائل والوثائق ما يدفعنى إلى مواصلة البحث ..

وتكورت قبضتى :

ــ أنا أمتلك المعلومة الصحيحة وليست الدكتورة نجلاء ..

ــ الغريب أنك مشغول بماض قد لا يكون .. أكرر حتى لا تغضب .. قد لا يكون صحيحاً . أما الدكتورة نجلاء فعملها يقتصر على الإنجاب .. على المستقبل ..

ــ مقارنة لا معنى لها ..

يتصور أنى لم أره . لم أراهما ، أو أنه يكابر ..

أثق أنها أرسلت له قبلة خفية عنى . تصرفت كأنى لم أر شيئاً ، وكأنى لم أسمع شيئاً ، وإن ظللت أراقبها ، بحيث لا ترانى ..

أثق أنها لاحظت اتجاه نظراتى . قهرها الارتباك . ظلت تتكلم وتتكلم ، كأنها تخشى ــ إن هى أعفتنى من كلامها ــ أن أستعيد الموقف بكامله ..

أردفت فى حسم :

ــ ليتك تبلغنى بأى كشف جديد ، ربما يفيد أبحاثى ..

ومشيت دون أن أنتظر إجابة ..

الفصل الخامس والعشرون

أطلت التحديق فى وجه جاك شارتييه ، أطلب فهماً ـــ أتصوره بديهياً ـــ فى صعود الغواصين بتمثالين لأبو الهول ، أحدهما من الجرانيت الرمادى ، والثانى من الديوريت . هؤلاء هم الفراعنة إذن ، وهذا هو العصر الفرعونى ..

كان الباب موصداً . حاولت أن أعالج المقبض ، فظل جامداً . لماذا تغلق على نفسها ؟

ضايقنى أنها كانت تبدّل ملابسها أمامى ، دون أن يبدو فى ملامحها ولا تصرفاتها أنها تشعر بوجودى . اللامبالاة تمتد بيديها إلى ثياب البيت ، تنزعها ، تقف بقميص النوم الداخلى ، ثم ترتدى ثياب الخروج . لا تنظر ناحيتى ، ولا يبدو أنها تشعر بى على أى نحو . ناوشتنى الرغبة ، فملت لتقبيلها . مالت بوجهها ، وإن لم تظهر ممانعة . جذبت ذراعها بيد ، وطوّقتها باليد الأخرى . حاولت أن أعتصر جسدها ، لكنها فاجأتنى بيديها تدفعاننى . ظللت على احتضانى لها . ملت على وجهها ، أبحث عن شفتيها .

تراجعت بخمش أظافرها وشتائمها . عبارات لم أتصور أنها تصدر عنها ، وتوجه لى ..

قالت :

ــ أنا لا أحب قبلتك ..

ولوت بوزها :

ــ كأنك تقبّل إحدى مومياواتك !

الشك يصطخب فى أعماقى . أحرص فلا يبين على ملامحى ، لكننى أشعر بزلزاله يفقدنى القدرة على التصرف . أشعر أنها لم تعد حتى تطيق أن أقترب منها ، وأن تلامس يدى جسدها . حتى الشعر نفرت حين امتدت يدى بعفوية لتزيل خصلة منه تهدلت على جبهتها ..

لماذا قالت إنها تحبنى ؟.

عندما تقدمت لخطبتها ، لم أحاول التلميح بالعاطفة ..

لفنى اليأس من محاولة البحث عن ثقب فى الجدار الذى يفصل بيننا . بدا عالياً ، ومصمتاً ، ولا يأذن بالتواصل . يحيا كل منا فى عالم منفصل ، وإن أقمنا تحت سقف شقة واحدة . حتى لو تبادلنا كلمات ، فلأننا ينبغى ألا نظل صامتين .

لم أعد أضغط على الجرس فى عودتى إلى البيت . أدس المفتاح فى ثقب الباب ، وأدخل بهدوء . تسبقنى النظرة المتطلعة إلى داخل الشقة ..

أزمعت أن أبدأ من النهاية ، فأنهى عمل البعثة الفرنسية . القرار لا أملكه ، لكننى أملك الإيحاء به . التنبيه إلى أخطاء يجب المحاسبة عليها . شغلنى التقاط المنمنمات بما يصنع ملامح الجريمة التى ينبغى مؤاخذة مرتكبها . أخطاء المصرى موضعها ملفه الوظيفى . تتيح له الترقية ، أو العكس . أخطاء الأجنبى تقرب موعد رحيله إلى بلاده . بات ذلك الأمر ــ أمامى ــ اتجاهاً وحيداً ..

***

قال جاك شارتييه :

ــ لم تعد ترحب باستضافتى ..

لم أرد ، وإن رنوت إليه بجانب عينى ، أحاول تبين ما يخفيه .

ــ ألسنا صديقين ..

قلت :

ــ بل نحن كذلك .. لكن مراجعة المعلومات تأخذ وقتى..

استطردت فى تخابث :

ــ أراك أكثر انشغالاً منى ..

وحدجته بنظرة متسائلة :

ــ لعلها قصة حب ؟

قال فى لهجة باردة :

ــ قلبى فى فرنسا ..

الفصل السادس والعشرون

وقفت وراء الشرفة الحجرية العريضة بامتداد الواجهة المطلة على ميدان المنشية . أطل على الزحام المتلاغط فى أسفل . بيع وشراء وزحام سيارات وحنطور ومارة وعربات يد ومشنات وأجولة وصناديق وصيحات ونداءات وشتائم ، والمقهى ــ على الزاوية الواسعة ــ بظت رواده إلى الطريق ..

المبنى الزجاجى يومض بانعكاس المرئيات ، السحب وضوء الشمس والبنايات المقابلة والحركة فى داخلها ، وما يشبه الألق والأطياف والتموجات ــ ربما بتأثير تبخر مياه البحر ــ من قبر الجندى المجهول . النسق الغربى يخالف البنايات الأخرى على جانبى الميدان . تعلوها سماء صافية ، تتخللها سحب بيضاء صغيرة ، متباعدة .

أرقب الشمندورة التى تعلو فوقها الأمواج ، تخفيها ، ثم تنحسر . أحدق فى امتدادات البحر : أين يرقد جثمان الإسكندر ؟.

لم تعد جريدة " البصير " ــ خلف صيدلية الأسعاف ــ فى مكانها . حلت ــ بدلاً منها ــ مطبعة فقيرة . قراءات كثيرة جعلت من موادها مراجع عن عصر الإسكندر . لا شئ فوق سطح الأرض من المدينة الإسكندرية . ليس ثمة إلا عمود بومبى المرتفع ، عمود السوارى ، هو آخر ما يقف ــ منتصباً ــ من الإسكندرية البطلمية . أنشئ فى وسط معبد السرابيوم ، تخليداً لزيارة الإمبراطور دقلديانوس للمدينة . تنازل عن حصة الإمبراطورية من القمح السنوى لأهل الإسكندرية اعتبر اقتحام المؤمنين السكندريين له فى نهاية القرن الرابع الميلادى نهاية للوثنية فى مصر ، مثلما اعتبر اقتحام الفرنسيين للباستيل نهاية للملكية فى فرنسا .

لا أثر لأى شئ ، لا الفنار ، ولا القصور ، ولا المعابد ، ولا المكتبة ، أو الجمنازيوم . اختفى كل شئ . دفن تحت مياه البحر ، أو تحت الرمال . ما لم يصر جزءاً من طمى النيل ، يتحول إلى طوب للبناء ، سلبه الغزاة الأجانب غنائم حرب ..

فى سنة ما ، فى لحظة ما ، ترتفع مياه البحر أعلى مما يتوقع أحد . تعلو عن الشاطئ ، وتفيض ، وتعلو ، وتعلو .

تغرق الكورنيش والطريق والأبنية المقابلة ، وكل الأبنية . تتحول الإسكندرية إلى بنايات تحت المياه ، كما مدن الفراعنة والبطالمة والإغريق . تختفى حياة اليابسة ، وتنشأ حياة أخرى لا تعنى إلا أساتذة التاريخ وعلماء الآثار ..

منطقة الميناء الشرقية هى التى تعرضت ــ ذات يوم ــ للزلزال المدمر ..

بدلت الآثار المنتشلة فى الميناء الشرقية ما استقر عليه الكثير من الدراسات والتنقيبات ، وانتصرت لوجهة نظرى ..

الإسكندرية مدينة مصرية ..

الإسكندرية ــ قبل الإسكندر ــ فرعونية ، مصرية . والإسكندرية ــ بعد البطالمة ــ إسلامية ، عربية .

صعد الغواصون بآثار تنتمى إلى عصور الفراعنة . المصادفة ، المفاجأة ، قادت ــ بمواصلة الغوص والتنقيب ــ إلى ما يشبه المدينة الفرعونية الصغيرة . نقوش فرعونية للملك سيتى الأول ، ورمسيس الثانى ، وبسماتيك من الأسرة السادسة والعشرين ، ومجموعة من التماثيل لأبو الهول ، وأعمدة ، وتيجان أعمدة على شكل أوراق البردى ، وكتابات هيروغليفية ، ومجموعة من قطع الجرانيت ، لعلها أجزاء

من فنار الإسكندرية القديم ، ومسلات تم قطعها من جرانيت أسوان ، مدينة كاملة من القصور والأعمدة والتماثيل ذات النسب الفرعونى . أجزاء من مدينة راكوتيس المصرية ، دمرها زلزال قبل ثلاثة قرون من وقفة الإسكندر على أرضها : أريد أن أبنى هنا عاصمة ملكى !. ميناء هائل ، اكتشفه الفرنسى جونديه فى ١٩١٠ ، فى أعماق البحر . إلى الجنوب الغربى من جزيرة فاروس . بقايا سدود وأرصفة وحواجز أمواج تمتد بطول ٢٥٠٠ متر . كان للمصريين ميناء فى الموقع الذى طلب الإسكندر أن تبنى مدينته فوقه . كان موجوداً من قبل أن تأتى حملة الإسكندر بمئات السنين . المنطقة الصخرية بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط ، كانت مأهولة بالمواطنين المصريين . غالبيتهم من الصيادين والملاحين والرعاة ، بالإضافة إلى أعداد من الجند الذين رابطوا فى المنطقة للدفاع عنها من الإغارات القادمة من البحر . جزيرة فاروس هى الامتداد الشرقى لقرية رقوادة . راقودة سبقت إنشاء الإسكندرية بأكثر من ثلاثمائة سنة .

***

الأمير عمر طوسون ــ العلم وحده ما يهمنى . لا شأن لى بانتسابه إلى العائلة المالكة ــ سبق الجميع إلى الكشف عن الآثار الغارقة فى خليج كانوب . انتشل العلماء فى ١٩٣٤ ــ بتمويله ، وبإشراف منه ــ رأس الإسكندر ــ موجودة الآن فى المتحف اليونانى ــ ، وعثروا على جزء من ناووس من البازلت ، وتماثيل سوداء لأبو الهول . رسموا أول خريطة للآثار الغارقة . قيل إن الأمر تم مصادفة ، وقيل إنه نتيجة تنقيبات مجهدة ، لكن انتشال التمثال أجاب عن أسئلة ، وطرح أسئلة أخرى . فرض احتمالات جديدة للمكان لم تكن موجودة . ثم توقفت التنقيبات بلا سبب ..

ربما كان لتوقف التنقيبات سبب لا أعرفه ، لكنها توقفت ، توقفت تماماً . لم يعد ــ فيما بعد ــ إلاّ محاولات اليونانى ستيلو وتنقيباته المحيّرة فى النبى دانيال ومحطة الرمل ومناطق أخرى فى الإسكندرية . ما يفعله كان باعثه التخمين . إطاره الصواب والخطأ . لم أبدأ محاولاتى فى التعرف إلى موقع مدينتى " مينوتيس " و " هيراقليوم " ، وتحديد مصب فرع النيل الكانوبى . لم أبدأ ذلك إلاّ بعد أن

فرغت من قراءة كل ما أتيح لى قراءته ، والاطــلاع علــى الخرائط القديمة والحديثة ، ومحاولة ربط النتائج بأسبابها . لم أشارك فى تنقيبات عمر طوسون ، لكــن النتــائج أراهــا ، وألامسها ، وأُخضعها لأبحاثى .

* * *

كنت واحداً من المئات الذين قدموا للتطلع إلى الكشــف ..

لم تلجأ البعثة الفرنسية إلى أحد من أساتذة الجامعــة ، ولا علماء الآثار ، ولا أساتذة التاريخ المصــريين . اكتفــت بالعلماء الأجانب ..

بدأ الفرنسيون عملياتهم منذ ١٩٩٦ . أكثر مــن ألفــى غطسة قام بها ــ لمدة عامين ــ غواصو آثار مــن فرنســا ومصر . رئيس المجموعة إيف أمبريو من المعهد الأوروبى للآثار الغارقة . التنقيب عن الآثار فى البحر أربعــة أشــهر فقط ، يكون فيها البحر حصيرة : مايو ، ويونيو ، وسبتمبر ، وأكتوبر . يصعب العمل وسط التيارات البحريــة والريــاح والنوات . استخدموا ما ليس فى حوزتى ، ولا حوزة العلماء المصريين ــ من أجهزة مسح القــاع ، وحــددوا المواقــع

الجغرافية بالأقمار الصناعية . استمر المسح عامين ، حتى رسموا أول خريطة للمنطقة تحت الماء . بدءوا ـ بعد ذلك ـ فى الكشف عن الآثار الغارقة . ثمة ما لا أعرف كيف أستخدمه من الأجهزة الإلكترونية فى الاستشعار والتصوير المغناطيسى والمكانس الكهربائية لإزالة الرمال . لو أنهم حددوا مواقع المدن الثلاث : كانوب ومينوتيس وهرقليوم . ربما الاكتشاف الذى يشغلنى فى واحدة من المدن الثلاث . عمليات التنقيب فى الميناء الشرقى . وجد الغواصون تماثيل لأبو الهول . بدا الأمر لغزاً يتطلب الحل . اكتشفوا أحياء المدينة القديمة : القصور والمعابد والجزر المتناثرة ..

مهمة البعثة فى المينا الشرقية ، هى تحديد موقع الميناء القديم ، وتحديد مواقع جزيرة أنتيرودس وقصر كليوباترة وقصر التيمونيوم الذى عاش فيه أنطونيو ..

لم أشارك فى البحث والتنقيب والكشف ، لكننى ظللت متابعاً لكل الخطوات ، حتى أعلنت البعثة الفرنسية عن اكتشافها . التقيت بالعلماء والمهندسين ، ولم أجلس إليهم وقتاً تتشكل فيه صداقات . تناقشنا ، تبادلنا الأسئلة والأجوبة

والمعلومات ، لكننى لم أسأل عن أسمائهم ولا عنيت بالتقاطها..

***

أبو قير ..

المعركة بين إنجلترا وفرنسا فى أبو قير عام ١٧٩٨ . أربعة عشر فرقاطة إنجليزية دمّرت سبع فرقاطات فرنسية ، تناثرت بقايا الأسطول الفرنسى فى مساحة نصف كيلو متر . امتدت حدائق الإسكندرية حتى كانوبيس ، أبو قير الحالية ..

لعل موضع القبر فى أبو قير ..

مينوتس وهيراكليوم هما المدينتان اللتان شغل اكتشافهما البعثة الفرنسية. ذكرهما فى الخرائط وكتب التاريخ والآثار . هيرودوت وسترابون وديودور الصقلى . قيل إنهما فى مساحة قاع خليج أبى قير الحالى . الأولى لعبادة الإله سيرابيس ، والثانية لعبادة الإلهة إيزيس . أتأمل عملية انتشال المدافع البرونزية من قاع البحر . خليج أبو قير حصيرة . الهواء ساكن ، والجو مختنق بالرطوبة ، والصمت يعمقه صوت انزلاق سمكة فوق سطح الماء .

وثمة موجات خفيفة تتكسر على الشاطئ .

أبو قير مهمة فى التاريخ المصرى القديم . ثمة آثار اكتشفتها بعثة أثرية إيطالية : بقايا مقابر ، سور قلعة ، مجموعات من الأسلحة . زمانها يعود إلى الفترة ما بين العصر الفرعونى وعصر البطالمة الأول . الحياة قبل إنشاء إسكندرية المقدونى . البشر والحياة والمقابر وتماثيل الأوشابتى . الاتصال بالعالم الخارجى : قبرص ورودس وكميدوس ، وجزر أخرى غيرها . الزلازل المدمرة أغرقت مواضع كثيرة على الساحل السكندرى ، وإن بقى من أطلال المقابر والأبنية ما يؤكد الصلة بين اليابسة والبحر . هى كانوب ، تتصل بها ضاحيتا مينوتس وهيراكليوم ، فى المنطقة بين أبو قير وإدكو . على بعد ستة كيلو مترات من ساحل خليج أبو قير . عند الفرع الغربى للنيل الذى يصب فى البحر . هيراكليوم يعود اسمها إلى الإله هرقل ، ومعبده الموجود داخل المدينة . هى جزء من مدينة كانوب ، ضاحية لها . ميناؤها يتحكم فى مدخل الفرع الغربى ــ الكانوبى للنيل ، وتمثل مدخلاً لاكتشاف مدينتين أخريين أغرقهما الزلزال ، أو أن مياه البحر ابتلعتهما . أهم بناياتها معبد الإله اليونانى هرقل . تبعد عن موقع مدينة مينوتس بأربعة كيلو

مترات . هبطت فى البحر فى القرن الخامس الميلادى . تضم الكثير من البنايات الضخمة والتماثيل الجرانيتية لرءوس الملوك الفراعنة ــ أحدها يمثل حابى إله النيل والفيضان ــ وأعمدة الجرانيت وتماثيل إله الشمس أبى الهول وتماثيل إيزيس وسيرابيس ، وناووس الأبراج والفلك فى مصر القديمة ، والعملات الذهبية والحلى والأقراط الذهبية والخواتم والقطع البرونزية الصغيرة والفصوص والمرايا التى يعود بعضها إلى العصر البيزنطى .

مدينة كانوب المدخل الرئيس لمصر . غرق الأسطول الفرنسى فى هذا المكان ، وفى جزيرة أنتيروس ، فى المينا الشرقية ، وتحت قلعة قايتباى وغربها . الاكتشافات مختلطة . العصران الفرعونى والإغريقى ، آمون وزيوس . يتوقعون العثور على بقايا الأسطول الفرنسى ، وأتوقع العثور على آثار تعود إلى عصور سابقة ، ربما إلى عصور الفراعنة . ربما يصعد ــ بدلاً من المدافع البرونزية ــ قبر الإسكندر . قال الفرنسى " أمبريو " إنه شاهد تحت الماء قطعاً حجرية جرانيتية صفّت بجانب بعضها . وقال إنها تشكل الطابق العلوى لفنار الإسكندرية . لا صلة للفنار

بالموقعة البحرية ، فالمكان إذن ينتمى إلى عصور متتالية ، تبدأ بما قبل البطالمة ، وتستمر حتى العصور الحديثة . يضيف إلى توقعى تمثال لبطليموس الأول . بتر رأسه ورجلاه ، ووضعت له رأس مشوه ..

خمّنت ــ فى وقفتى على صخرة فى الشاطئ الرملى ــ أن التمثال الذى أُخْرِج من تحت الماء بدون رأسه ، هو للإلهة إيزيس . الإلهة الأم فى الديانة المصرية القديمة . هى أخت أوزوريس وزوجته كما كانت الحال فى مصر الفرعونية . كانت تقوم بحكم البلاد فى أثناء غياب زوجها عن مدينة الحكم ، يطوف بالمدن والقرى والخلاء ، يعلم الناس ما يفيدهم ، ويعينهم على مواجهة الأخطار . حين نال إله الشر " ست " أخاه أوزوريس بأذاه ، وقتله (نتذكر قصة هابيل وقابيل !) نذرت إيزيس حياتها للبحث عن الزوج المفقود . لملمت أشلاءه ، أربع عشرة قطعة ، وبثت فيها الحياة . تعددت أسماؤها : الحكمة ، الحب ، الحقيقة ، القديرة ، القاهرة ، الوفرة ، الحضارة من عطاياها ، ملكة الأرض كلها ، سيدة الجميع ، البصيرة بكل شئ ، نجم البحر ، إكليل الحياة ، الحظ الحسن ، النعمة والجمال ، المخلص ومانح

القانون . ظلت إيزيس هى الشخصية الرئيسة فى طقوس الموت . نسب إليها شفاء المرضى ، وإعادة الحياة إلى الموتى .

صارت إيزيس ــ فى العقيدة التى أوجدها المصريون ــ زوجاً للإله سيرابيس ، الذى أوجدوه كذلك . إله جمع بين زيوس وإسكيليبوس الشافى والعجل أبيس وأوزوريس . آلهة إغريقية ومصرية . ظل الناس يتجهون ــ بالصلاة والدعاء ــ إلى إيزيس . لم يتجهوا إلى سيرابيس بدونها . تمكنت الأخت والزوجة لأوزوريس ، والأم لحورس ، أن تفرض وجودها القوى ، زعامتها ، على البانثيون الوثنى . تمكنت ــ فى عصر تال ــ أن تفرض وجودها وزعامتها على البانثيون المسيحى . لما انتصرت المسيحية ــ فيما بعد ــ سقط آلهة الإغريق زيوس وأبوللو وسيرابيس . ظلت إيزيس ــ وحدها ــ فى عقيدة المصريين . تحول أتباعها ــ بقدوم المسيحية ــ إلى أم ثانية .

شغلتنى المدينتان عن الموقع الثالث : مصب الفرع الكانوبى للنيل . يصعب التخمين أن الإسكندر اختار الموقع موضعاً للخلود . أعرف أن الفرع الكانوبى هو أهم فروع

دلتا النيل السبعة ، وأصلحها للملاحة ، وأحفلها بالنشاط ، وهو المنفذ الرئيسى لمصر على البحر المتوسط من قبل أن يأمر الإسكندر المهندس دينواقراطيس بأن يبنى الإسكندرية . أعرف ذلك كله ، لكن الإسكندر ــ فى تصورى لشخصيته ــ يختار لمرقده الأخير ، ولكنوزه ، ووصيته ، موقعاً أخر ليس هو الفرع الكانوبى . انتشال التمثال من مياه المنطقة يشى بمعنى آخر . أنشئت الإسكندرية ، فانتقل النشاط التجارى إليها . يصعب التصور أن المعنى غاب عن الإسكندر ، فهو لا يقدم على أن تضم كانوب جثمانه ..

تمثال قادش الذى وضعه الإسكندر فى مكان التقاء البحر المتوسط ببحر الظلمات ..

أوافق على الدعوة بهدم قلعة قايتباى . شيدت فوق موقع فنار الإسكندرية القديم . قيمة الفنار الأثرية أهم . تطلعى إلى ما هو أبعد من مجرد العثور على الفنار . أتوقع العثور على القبر ، الكنز ، الطلسم . لم أهبط إلى الأعماق تحت القلعة ، وإن حدثنى جاك شارتييه عن قطع أعمدة الجرانيت ، تمثل رواق الأعمدة المحيطة بقاعدة الفنار ..

أين المكان ؟

الفصل السابع والعشرون

فاجأتنى بتقديم الفطور لى فى السرير . كنت بين اليقظة والنوم حين رأيتها واقفة أمامى وعلى يديها صينية صـــغيرة يعلو منها بخار الشاى . ثمة فى عينيها ما لم أره من قبـــل . غلّفت صوتها بنبرة أنثوية هامسة . لم تكن أجمل منها قبـــل تلك اللحظة : الشعر المســـدل علـــى الكتفـــين ، والعينـــان الملتمعتان بوميض كالسحر ، والشفتان اللتان أجادت رسمهما ، والروب الأحمر ، المسدل على قيمص داخلـــى حريـــرى أسود . وتشممت أريج عطر نفاذاً فى جسدها ..

لم تكن هى نجلاء التى أعرفها ..

وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة . بدا القميص الداخلى الأسود محرضاً . ملت بها على السرير . أهملت انحسار الروب عن صدرها وساقيها ، وأغمضت عينيها . دلكت ــ براحة يد مترفقة ــ وجنتيها ، وعنقها ، وأنفها ، وشفتيها . هبطت راحة يدى إلى صدرها . لامست نهديها .

توسطت ما بين النهدين . زادت من تدليكها . تناوبت اعتصارهما .

أمضينا وقتاً لم نعشه من قبل ، أو أننا نسينا مثله . استعدت فى ابتسامة العينين ما عشناه من أيام سعيدة . بذلت من نفسها جيداً . خاضت بى بحاراً لم أرها من قبل . وهبتنى الكثير من الأسرار ، وما لم أكن تعلمته . ملأت الحجرة بهمساتها ، ووميض عينيها ، وترنمت فى أذنى بأغنيات وحشية . ملأت الحجرة بوجودها الذى احتوانى . تقافز فى داخلى آلاف المردة والجان والشياطين . انطلقت المراكب إلى خارج البوغاز . اصطدمت الأمواج بصخور الشاطئ . علت صفافير البواخر فى الموانى البعيدة . حلقت الطيور فى تكوينات متداخلة . تضوع أريج البخور من مقامات الأولياء . انتظم إيقاع الجلوة فى ميدان أبو العباس . اهتز الذاكرون فى الحضرة . تبادلنا العطاء بلا حدود . لا قلق ولا غضب ولا رفض . حتى صورة جاك غابت ، تلاشت ، كأنها لم تكن ..

صحوت ..

مددت يدى أبحث عنها . لم أجدها جانبى . ناديت عليها ، فظل الصمت سادراً . رفعت أعلى جسدى . أسندت رأسى إلى حافة السرير ، وأعدت النداء ..

لمحت ــ فى جلستها على كرسى الصالة ــ آثار دمع على خديها . هل خمنت ما أزمعت أن أصارح به جاك شارتييه ؟.. هل عرفت أنى سأطالبه بأن يبتعد عن حياتنا ؟..

لم أعد أطيق تصرفاتها ..

كانت تختلف معى حتى فى ضوء الطرقة ، فى أثناء النوم . أحب أن يكون خافتاً . تفضّل هى أن تكون إضاءة الطرقة نهاراً ..

ــ مم تخافين وأنا بجانبك ؟

ــ لا أحب أن أنام فى الظلام ..

كلمات لا معنى لها . تبدو فى سمعى أقرب إلى الثرثرة ..

قال أبوها :

ــ خلافاتكما مسلسل لا نهاية لحلقاته ..

داريت غضبى بابتسامة مستخفة :

ـــ الفضل لابنتك .. هى مؤلفة المسلسل ، وبطلته ، ومخرجته أيضاً !

اهتزت قامته النحيلة :

ـــ وأنت .. ما دورك ؟..

هل أحدثه عن الدور الذى اختارته لى ، مجرد مشاهد لمسرحية سخيفة ؟!..

كانا يتصرفان ، يتكلمان ، ببراءة من يعرف أنى لا أعرف شيئاً مما بينهما . تحنى رأسها ناحية أذنه ، تهمس بكلمات لا أتبينها . يلفنى شعور بالمهانة ، وأنا أعرف أنهما يتهامسان عنى . يصعب أن أخمن ، لكن مجرد الهمس يشى بأنهما يتحدثان فى ما يخفياه عنى . يثيرنى أنهما يتلفتان فى أحاديثهما الهامسة ، ويصمتان عن الكلام عندما يلحظان اقترابى منهما ، بحيث أسمع أو أرى ..

ماذا تعنى بهذه الحركة المستترة التى رافقت كلامها ؟ هل تزوجت امرأة تهوى مصادقة الرجال ؟..

قلت :

ـــ أنا المشاهد الذى يندم على دفع نقوده ..

قالت الأم :

ــ ما دامت علاقتكما قد وصلت إلى طريق مسدود .. فالطلاق أفضل !..

تمنيت لو أختلى مع نفسى ــ ولو لحظات ــ أعيد فيها ترتيب ما حدث . أفك تشابكات الخيط . أصل البداية بتوقعات المستقبل . هل أسير فى الطريق الصحيحة ، أو أنه ينبغى أن أمضى إلى وجهة أخرى ؟

***

الإسكندرية مدينة واسعة ..

أترك لقدمى خطواتهما ، تسيران دون اتجاه ، وبلا خريطة . أربط بين ما أراه ، وما أسعى إليه . أمضى من شارع إلى شارع . ربما فضلت الشوارع الجانبية ، لا للبحث عن الحركة الهادئة . أملك البقاء فى البيت ، أو فى المكتب ، فلا نزل إلى الطريق ، أو أعانى الزحام . الطريق الهادئة فرصة للتأمل ، وربط المشاهد القديمة بما يطالعنى للمرة الأولى . إذا ضللت الطريق سألت ماراً ، أو بائعاً ، أو مطلة من نافذة . أواصل السير . فى بالى أن الطريق ــ فى أى موضع ــ تفضى إلى البحر ..

أحب السير على قدمى . لا أركب الأوتوبيس أو التاكسى إلا لمشاوير العمل البعيدة ، تبطئ خطواتى . أتأمل ، أسأل ، أناقش ، أراقب الحركة والسكون . يلفنى التعب ، فأواصل السير بلا توقف . لا يشغلنى حتى مجرد الالتفات إلى ما حولى ، حتى يقهرنى التعب ، فأبطئ فى خطواتى ، ثم أتوقف . تحيط بى ــ منذ البداية ــ أصوات المعاول ودقات الأزاميل ولوم نجلاء وكلمات شارتييه ودعوات عم عبد السلام وتوقع الكنز الطلسم . تختلط الصور وتتشابك . أنفض رأسى ــ بتلقائية ــ كأنى أريد أن أقذف بالصور المتراكمة داخل الذهن ، فتثقله ..

أشق الزحام فى شارع الميدان ، وأسواق الترك والمغاربة والخيط والصاغة والخراطين . ينحنى العمال على الطاولات الخشبية . يثبتون قطع الصدف أو العاج بالمطارق الصغيرة . زنقة الستات . موضعها فوق الهيبتاستاد . الجسر الذى وصل بين جزيرة فاروس وأرض الإسكندرية الرومانية . الدكاكين الصغيرة ، المتقابلة ، تزيد من اقترابها فتارين زجاجية بارزة . تأذن ــ بالكاد ــ لمرور ــ أو وقوف ــ شخص واحد . تضم معروضات صغيرة : مشغولات

ومناديل وأقراط وسلاسل وأدوات ماكياج ، وتتدلى على الواجهات ملابس ومفروشات وسجاجيد . لعل هذا هو الموضع ، وإن كان من الصعب تحديده تماماً ، ربما يكون الموضع هو أحد الأسواق المتصلة بزنقة الستات ، أو شارع الميدان ، مما يشكل احتمالاً يخفى قبر الإسكندر ..

جامع الشيخ إبراهيم ــ فى نهاية شارع الميدان ، وأول سوق راتب . يتميز بمئذنة ضخمة ، وخلوات مهجورة ، وسلالم طويلة تفضى إلى بابه الرئيس ــ كان يؤدى الدور نفسه الذى يؤديه جامع الأزهر ، من حيث سمو مكانته ، وعنايته بالتعليم الدينى . هو واحد من أربعة جوامع أو أكثر أنشأتها عائلة الشيخ فى الإسكندرية .. ثم تضاءل دوره ــ فيما بعد ــ واقتصر على أداء الصلوات ، واستقبال الجنازات المتجهة إلى العامود لأداء الصلاة عليها . مع أبو العباس والبوصيرى وعلى تمراز وغيرهم ، من الأولياء المشهود لهم ، فإن الجنازات تتجه ــ فى الأغلب ــ إلى جامع الشيخ لأداء الصلاة عليها . هو تقليد تغيب عنى بواعثه !. وكانت الصلاة على جثمان أمى ، ثم جثمان أبى ، فى جامع الشيخ ..

أميل إلى سوق راتب . على جانبى الطريق ، وفوق الرصيف طاولات السمك وأم الخلول والجندفلى ، ولحمة الرأس والكوارع والفشة والممبار ، وصناديق الرنجة ، وعربات اللوف ، ورصات الخضر والفاكهة ، وأجولة العطارة ، وأقراص الجبن التركى ، ويتدلى السجق والبسطرمة أمام الأبواب ..

أتشاغل برؤية الجالسين داخل البارات فى شارع السبع بنات . البارات المسدلة الستائر من حلقات الخشب المخروط ، الملون ، الضوء الشاحب ، الرواد على كراسى تساندت على الجدار ، يفصل بينها طاولات ، فوقها زجاجات الخمر وأطباق المزة . تلتقط بحارة السفن الحربية والتجارية العابرة . ألفوا التردد عليها ، أو دلّهم عليها بحارة آخرون . أمشى ــ بالكاد ــ فى شارع اللبان المبلط بأحجار البازلت الصغيرة ــ تقرقع فوقها عربات الحنطور والكارو ، وتصلصل عربات الترام . أتجنب البضائع المصفوفة على الأرصفة ، وأحاذر قدوم الترام واللوريات والتريلات المحملة ببالات القطن من مينا البصل ، وإليها . على الجانبين مستودعات الخشب والقطن والفحم ومخازن الخيش والبصل

ودكاكين السروجية وأغطية السيارات . يترامى امتزاج رائحة البحر والفحم من المستودعات المطلة عليه .

أتنقل ما بين شارع الفراهدة ، وشارع عبد المنعم ، وشارع الهماميل ، وشارع حمام الورشة ، وشارع باب الكراستة ، وأساكل الغلال ، وشارع أنستاسى ، وشارع الباب الأخضر [تكتم ثلاثة عمال عملية حفر فى المنطقة الأثرية باللبان ، من خلال جدار موصل بين الورشة فى الباب الأخضر والمنطقة الأثرية . غطوا الحفرة بألواح خشبية . قبض عليهم . اعترفوا أنهم يريدون الوصول إلى قبر الإسكندر] ، وشارع الخديو ، ومقابر العامود ، ودار إسماعيل [أطيل الوقوف أمام مقابر كوم الشقافة] ، وشارع السنوسى . حتى كوم بكير أحاول استعادة ما كان عليه . أتأمل الحركة داخل باب عشرين ، عند كوبرى الهويس ، فى نهاية ترعة المحمودية .

خلفت فى الطريق إلى العجمى شارع المكس بزحامه وصخبه ، والبيوت المتساندة ، والمعسكرات والورش والمصانع وأرصفة الفحم ومستودعات البترول ومخازن الأخشاب والشون والمدابغ والدكاكين التى بظت أحشاؤها

على الأرصفة . تترامى الروائح المميزة من السلخانة والمدابغ فى منطقة المتراس ، أو بالقرب منها ، وما يشبه الملح الفاسد . أعرف أن التلال المحاذية لشاطئ البحر تضم الكثير من المقابر البطلمية ، حتى الدخيلة ..

كان التحنيط ـ قبل عصر الإسكندر ـ يمارس لأجساد المصريين فى الجبانة الغربية . المساحة من القبارى إلى الورديان وحتى صحراء المتراس . هل يكون جثمان الإسكندر قد خضع لتحنيط الكهان المصريين ـ أليس ابن آمون ؟ ـ ودفن فى المنطقة نفسها ؟..

الفصل الثامن والعشرون

صادقت الإسكندرية جيداً ..

أجدت التعرف إلى هذه المساحة ذات الستة والعشرين كيلو متراً طولاً ، والستة كيلو مترات إلى كيلو متر واحداً عرضاً ، الأسواق المزدحمة والميادين والشوارع والحوارى والأزقة الضيقة والبيوت المتقاربة النوافذ والشرفات ودور السينما والمسارح والميادين والساحات والقصور والعمارات والمدارس والبوغاز ومقابر العامود والمنارة والمتاحف والحدائق والميناءين الشرقى والغربى وخليج الأنفوشى وانحناءات الطرق وزواياها والكبارى ومظلات طريق الكورنيش وتماثيل الميادين والجوامع والمساجد وردهات المحطة البحرية والكازينوهات وحدائق المنتزة ومقابر اليهود بالشاطبى وكنيسة الروم الأرثوذكس فى المنشية الصغيرة وموقع مقبرة اللاتين فى تقاطع الشارعين الرئيسيين فى باب شرقى ، والقهوة العالية المطلة على محطة الإسكندرية ، وجامع الموازينى ــ صاحبه سيدى على الموازينى . كان

صغيراً ، ثم جدد بعد هجره وتهدمه . مدفون فى داخله هو وولده ـــ والبحر الميت وجزيرة نلسون وسيدى الكافورى وطابية سيدى بشر بمدفعيها الهائلين المتجهين إلى البحر ، وتمثال الأشرعة البيضاء فى انحناءة الشاطبى ، والتندات الملونة تظلل واجهات المقاهى والكازينوهات على امتداد الكورنيش ، ومساحات الخلاء ، والترام الدائرى بين محرم بك وبحرى ، وسوق راتب وسوق باب عمر باشا والترام وباصات النقل العام وسيارات التاكسى والحنطور والكارو وأدق وأطاهر وقطع النذور القماشية تتدلى من أعمدة النحاس المحيطة بمقامات الأولياء ، وطبق الفول المدمس بالسلطة الحارة والخيار المخلل والجزر واللفت المصبوغ ، وأطباق القنوات الفضائية ، والملاحات ـــ بصفحتها الساكنة ـــ على حالها ـــ أتصور ! ـــ منذ آلاف السنين ، من قبل أن يأتى الإسكندر إلى فاروس أو راكوتيس ، تقتحمنى ـــ من الجانبين ـــ روائح الملح والأعشاب وأعواد البوص والكائنات الميتة . روائح يصعب إغفالها ، وشارع تانيس الضيق ، الطويل ، تغيب المرئيات فى صعوده ، وتظهر فى هبوطه إلى أسفل ، والجزيرة الصغيرة على بعد كيلو متر واحد من شاطئ سيدى

بشر . درجات محفورة فى الصخر ، تفضى إلى حمام صغير ، قيل إن كليوباترة كانت تستحم فيه قبل أن تبحر مع يوليوس قيصر فى نهر النيل .

دخلت إلى حديقة أنطونيادس : الأشجار النادرة والنباتات المتسلقة والزهور المحمرة ، وتماثيل المرمر السبعة عشر تمثل آلهة الإغريق ، وقصر اليونانى جون أنطونيادس يضم عشرات الغرف والأجنحة والقاعات .

ملت من حديقة أنطونيادس إلى حديقة الورد . المدرجات الأربعة ذات الأربعة مستويات . المستوى الأدنى فيه نافورة يتوسطها تمثال . وقفت فى الشرفة ، أعلى موضع فى الحديقة ، تطل على تزاحم أنواع الورود ، واختلاف ألوانها . جلست على المقاهى ، وفى الحدائق . أطلت الوقفة أمام سور الكورنيش . غابت الأسئلة ونظرة الاكتشاف . حل التعاطف والود ، وما يشبه التيقن من أن الطلسم لابد أن يظهر ، فيحفظ للإسكندرية حياتها ..

لابد أن قبر الإسكندر فى موضع ما من ذلك كله . أثق أنه فى موضع تحت أرض الإسكندرية . يتوقع زملائى من المؤرخين وعلماء الآثار أن تنهار إحدى البنايات . يكتشف

العمال ــ وهم يرفعون الأنقاض ــ أنها كانت تخفى القبر . مهمتى أن أقرب التوقع . الانتظار احتمال قد يطول . أما الخرائط والتنبؤ والتنقيب فهى تجعل الاحتمال ممكناً ..

***

صحوت على أصوات ارتطامات هائلة ..

رأيت من النافذة المطلة ــ من زاويتها ــ على المينا الشرقية عمال يلقون قطعاً من الخرسانة فى البحر ، فى منتصف المسافة بين السلسلة وقلعة قايتباى ..

داخلنى إحساس بأن الله قد تخلّى عنّى ..

نزلت بالبيجامة ، حافى القدمين ..

قال الموظف الشاب ذو الخوذة الحديدية :

ــ هذه الكتل لحماية القلعة من نحر الأمواج ..

هل يقوضون ما بذلته ، فى الوقت الذى أوشك أن أعثر على الطلسم ؟

فكرت فى أن أجرى إلى داخل جامع أبو العباس . أصعد الدرجات الرخامية اثنتين اثنتين . أمسك بالميكروفون المتدلى من المنبر الخشبى . أدعو الناس ــ من خلال جامع السلطان ــ إلى التحرك لمنع تهشم الآثار الموجودة فى قاع

البحر . فى حوزتى وثائق تحدد مكان المقبرة . تظهر الكنز والطلسم المودع فى داخله . الطلسم هو ما يشغلنى . لو أنى انتظرت . لو أنى لجأت إلى لجان ومستشارين ، وكتابة مذكرات ، وتلقى مذكرات ، وإلقاء أسئلة ، وتوقع أجوبة . لو أنى فعلت ذلك كله ، ربما ينقضى الوقت دون أن أتم شيئاً . من المهم أن أتحرك ـــ وأحرك الجميع ـــ قبل فوات الأوان . الخرائط والوثائق تثبت وجود قبر الإسكندر فى المنطقة ، وتشى بوجود وثيقة الطلسم . كل ما توصلت إليه دراساتى وتنقيباتى تشير إلى موضع القبر فى قلب المينا الشرقية ، فى المساحة بين السلسلة وقلعة قايتباى . فى الموضع نفسه الذى بدأ العمال يلقون فيه بقطع الحجارة . لن يبين القبر ، الكنز ، الطلسم ، عن ملامحه إلا بتجفيف المينا الشرقية . إحاطتها بسور شبه دائرى يعزله عن البحر . يكشف قاع الحوض ما به من أسرار مضى عليها مئات السنين ، وربما آلاف السنين ، إن أبانت العهود الفرعونية عن ملامحها ..

شغلتنى الوسيلة التى أنقذ بها قبر الإسكندر ـــ والوثيقة داخله ـــ من التدمير الذى يتهدده

اختزلت الزمان والمكان فى هذه اللحظة ، فى هذه القطعة من الأرض . هوت يداى بالفأس . علت وهوت ، علت وهوت . لم آبه بالغبار الكثيف ، علا ، فغطى وجهى . عرفت الضربات طريقها إلى الحفرة . أتوقع القبر ، الكنز ، الطلسم ، المعجزة .

اتسعت الحفرة وامتدت وعمقت . أضرب بكل ما تسعفنى قوتى ، قوة غريبة لم أشعر بها من قبل ، تصاعدت فى داخلى . ركبنى الإصرار والجن والعفاريت . لا ألتفت إلى العين التى فاجأها تصرفى ، فاكتفت بالفرجة . كأنهم يتابعون ما لا شأن لهم به . واصلت الضرب بالفأس . أتوقع ، أثق ، أن السر سيبوح بما يخفيه . تنبهت إلى دائرة السحن الغريبة . اختلطت الأعين والأنوف والأفواه . ساحت الملامح ، فلم أتبين من أحاطوا بى . لم أعرف من هم ، ولا من أين قدموا ، ولا ماذا يريدون ، وهل يعيبون تصرفى ، أو يوافقون عليه ؟

تشابكت الملاحظات والصيحات والنداءات المشفقة ، لم أجد فيها معنى محدداً ، وإن مثلت دافعاً ــ لا أدرى لماذا ، ولا كيف ــ لكى أواصل الحفر ..

تملصت من الأيدى التى حاولت تقييدى . أحدث الفأس

ما يشبه الرنين ..

هل ؟..

رافق الضربات المتلاحقة هتاف فى داخلى يعلن الميلاد

، والبشارة .

الإسكندرية ــ القاهرة ١٩٩٢/١٢/٨ ــ ١٩٩٨/٦/٧

مراجع عاد إليها الكاتب :

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريـــزى . مـــروج الذهب للمسعودى . فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكـــم . وصـــف إفريقيا للحسن الوزان . طبوغرافية الإسكندرية فى العصر الرومـــانى لسهير هانم سليم غالى باخوم . تاريخ مدينة الإسكندرية فـــى العصـــر الإسلامى لجمال الدين الشيال . تاريخ الإســـكندرية وحضـــارتها فـــى العصر الإسلامى للسيد عبد العزيز سالم . الخطط التوفيقة . المصحف المفسر لمحمد فريد وجدى . الرد على المنطقيين لابن تيميـــة . ديانـــة مصر القديمة لأدولف أرمان . قصص الأنبياء للثعلبى . قبر الإسكندر الأكبر لمحمد عادل عبد العزيز . نوابغ الشباب لأحمد قاســـم جـــودة . المدينة الإسلامية لمحمد عبد الستار عثمان . رسالة عـــن الإســـكندرية القديمة لمحمود الفلكى . مصر فـــى قيصـــرية الإســـكندر المقـــدونى لإسماعيل مظهر . العصر الذهبى للإسكندرية لجون مـــارلو . أخبـــار الأدب (٢٠ فبراير ٢٠٠٠) . آثار الإسكندرية القديمة لعزت زكـــى حامد دقادوس . الإسكندرية عبر العصور فى ذاكرة مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية (أربعة مجلدات) .

مؤلفات محمد جبريل

١ ــ تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ــ نفد

٢ ــ الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ ــ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ ــ انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ ــ إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ ــ مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ ــ هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ ــ من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ ــ قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ ــ الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ ــ قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ ــ النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ــ هيئة الكتاب

١٣ ــ الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ ــ نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة

١٥ ــ اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ ــ السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ ــ آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ ــ قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة

١٩ ــ زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ ــ الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ــ ترجمت إلى الإنجليزية ــ الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ هيئة الكتاب

٢١ ــ حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ ــ سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ ــ انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ ــ أبو العباس ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ ــ ياقوت العرش ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ ــ البوصيرى ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٧ ــ على تمراز ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
٢٨ ــ بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩ روايات الهلال
٢٩ ــ مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة ــ الطبعة الثانية ٢٠٠٠ ــ المجلس الأعلى للثقافة
٣٠ ــ حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣١ ــ الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣٢ ــ حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ ــ هيئة قصور الثقافة
٣٣ ــ رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ ــ مكتبة مصر
٣٤ ــ الميناء الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية
٣٥ ــ مد الموج ــ تبقيعات نثرية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية
٣٦ ــ البطل فى الوجدان الشعبى المصرى (دراسة) ٢٠٠٠ــ هيئة قصور الثقافة
٣٧ ــ نجم وحيد فى الأفق (رواية) ٢٠٠١ ــ مكتبة مصر
٣٨ ــ زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ ــ مكتبة مصر
٣٩ ــ موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ ــ هيئة قصور الثقافة

٤٠ ــ ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (رواية) ٢٠٠٣ ــ روايات الهلال

٤١ ــ حكايات الفصول الأربعة (رواية) ٢٠٠٤ ــ دار البستانى

كتب عن المؤلف

١ ــ الفن القصصى عند محمد جبريل ــ مجموعة من الباحثين ــ مكتب منيرفا بالزقازيق

٢ ــ دراسات فى أدب محمد جبريل ــ مجموعة من الباحثين ــ مكتب منيرفا بالزقازيق

٣ ــ البطل المطارد فى أدب محمد جبريل ــ د. حسين على محمد ــ دار الوفاء بالإسكندرية

٤ ــ فسيفساء نقدية : تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ــ د . ماهر شفيق فريد ــ دار الوفاء بالإسكندرية .

٥ ــ محمد جبريل .. موال سكندرى ــ فريد معوض وآخرين ــ كتاب سمول

٦ ــ استلهام التراث فى روايات محمد جبريل ــ سعيد الطواب (دكتور) ١٩٩٩ دار السندباد للنشر

٧ ــ تجربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل ــ حسين على محمد (دكتور) ٢٠٠١ كلية اللغة العربية بالمنصورة

٨ ــ فلسفة الحياة والموت فى رواية الحياة ثانية ــ نعيمة فرطــاس ــ ٢٠٠١ ــ أصوات معاصرة

٩ ــ روائى من بحرى ــ حسنى سيد لبيب ــ ٢٠٠١ ــ هيئة قصور الثقافة

١٠ ــ محمد جبريل ــ مصر التى فى خــاطره ــ حســن حامــد ــ ٢٠٠٢ ــ أصوات معاصرة